مِلة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين

ويليه

التوحيد أولاً وأبداً

الطبعة الثانية



لفضيلة الشيخ
عاصم بن محمد العتيبي

دار المحجة
للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م

الطبع والتجليد

İKDAM MATBAA VE YAYIN EVİ İTHALAT İHRACAT TİCARET LİMİTED ŞİRKETİ

IKITELLI OSB MAH. AYKOSAN ÇARSI BLOK- SK. AYKOSAN SITESI ÇARSI BLOK NO: 1 /1

IÇ KAPI NO: 526 BASAKSEHIR/ ISTANBUL

Yamanevler Mah. Küçüksu Cad. No: 9 Dükkan: 1 Ümraniye / İSTANBUL
Tel: +90 5368789603
Telgram: @daralmehbra

دار المحبرة للنشر والتوزيع

مِلَّةُ إبراهيم ﷺ ودعوةُ الأنبياءِ ﷺ والمرسلين

ويليه

التوحيد أولًا وأبدًا ﷺ

لفضيلة الشيخ

عاصم بن محمد العتيبي

دار المحجة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بـراءة

إلىٰ الطواغيت في كل زمان ومكان . . .

إلىٰ الطواغيت حكامًا وأمراء وقياصرة وأكاسرة وفراعنة وملوكًا . . .

إلىٰ سدنتهم وعلمائهم المضلين . . .

إلىٰ أوليائهم وجيوشهم وشرطتهم وأجهزة مخابراتهم وحرسهم . . .

إلىٰ هؤلاء جميعًا .. نقول

﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

براء من قوانينكم ومناهجكم ودساتيركم ومبادئكم النتنة . .

براء من حكوماتكم ومحاكمكم وشعاراتكم وأعلامكم العفنة . .

﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾

لأجاهدن عداك ما أبقيتني

ولأجعلن قتالهم ديداني

ولأفضحنهم علىٰ رؤوس الملا

ولأفرين أيديمهم بلساني

مـوتـوا بـغـيـظـكـم فـربـي عـالـم
بـسـرائـر مـنـكـم وخـبـث جـنـانِ
فـالـلـه نـاصـر ديـنـه وكـتـابـه
ورسـولـه بـالـعـلـم والـسـلـطـانِ
والـحـق ركـن لا يـقـوم لـهـدّه
أحـد ولـو جـمـعـت لـه الـثـقـلانِ

(ابن القيم)

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه وبعد:

فهذه الطبعة الثانية التي يُضاف إليها شيء من الزيادات والتعليقات لهذا الكتاب العزيز علىٰ نفسي وإن كان قد طُبع من قبل عشرات وربما مئات الطبعات التصويرية عن طبعته الأولىٰ وهو عزيز علىٰ نفسي لكونه أغاظ ولا زال يُغيظ الطواغيت وأنصارهم وإعلامييهم وعلماءهم، وقد كان مما قال بعض هؤلاء فيه: (إن هذا الكتاب جاء إلىٰ عقيدة الولاء والبراء وقد نامت عند كثير من أهل هذا الزمان فهزها هزا عنيفا حتىٰ أيقظها!)

وقد كان بعض أنصار الطواغيت يقول لمن يجدون عنده هذا الكتاب: (يكفي أن تقتني هذا الكتاب لتصبح جهاديا تبغضنا وتعادينا وتكفرنا وتجاهدنا!)

والفضل ما شهدت به الأعداء

والحقيقة أن هذه هي زبدة هذا الكتاب وثمرته؛ ومِن أجله وضعْته! فقِهَها الأعداء قبل كثير مِن غيرهم!

وأنا بما يدعو إليه هذا الكتاب قائم؛ وبمحتواه صادع؛ وأسأله تعالىٰ أن ألقاه ثابتا عليه لم أُبدّل ولم أُغَيّر؛ وقد قلتها لهم

في آخر مرة طلبوني فيها فهددوني وتوعّدوني قائلين: ما الذي تريده بالضبط؟

فقلت لهم: (أريد أن ألقىٰ الله وأنا أبغضكم وتبغضونني؛ وأعاديكم وتعادونني)

وإذا كان هذا الكتاب مِن أوائل ما خَطّه بناني؛ فقد كان مقدمة لكثير من الكتابات المهمة التي جاءت بعده؛ ويعدها بعض المراقبين أهم منه وأخطر.

ومع ذلك فلهذا الكتاب مكانة في قلبي؛ إذ كان ثمرة عكوفي علىٰ كتب أئمة الدعوة النجدية في مكتبة الحرم المدني الشريف في بدايات توجهي؛ حيث لاحت لي أنوار هذه الطريق المباركة؛ فاتّبعتها؛ ودعوت إليها؛ وكان لزاما عليّ أن أوجه إخواني إليها.

فأنا بهذا الكتاب الصغير في حجمه؛ الخطير والعظيم في موضوعه؛ أوجّه إخواني إلىٰ الطريق المتميّز الصحيح؛ طريق الأنبياء والمرسلين؛ وملة الخليلين محمد وإبراهيم عليهما أتم الصلاة والتسليم؛ فأختصر عليهم الجهد والوقت والبحث . . حين أختمه بقولي:

هذا هو الطريق . . . فهل من رجال؟!

هذا وقد عَنّ لنا من باب الفائدة أن نلحق بهذه الطبعة بعض الرسائل والمقالات المرتبطة بالتوحيد وعراه الوثقىٰ والتي كنت قد

كتبتها في أوقات مختلفة؛ جمعناها تحت عنوان (**التوحيد أولا ودائما**)

فنسأل الله تعالىٰ أن يتقبل منا وأن ينفع بهذا الكتاب ويبارك بهذه الطبعة وأن يجزي خير الجزاء كل من ساهم في إعدادها وطباعتها ونشرها.

✍ وكتب

أبو محمد عاصم العتيبي

ذو الحجة ١٤٤٥هـ



مقدمة

الحمد لله ولي المتقين، وخاذل أعداء الدين . .

وأطيب الصلاة وأتم التسليم علىٰ نبينا وأسوتنا القائل: (. . إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم)(١).

وبعد فهذا كتابي ملة إبراهيم أقدمه إلىٰ القراء الكرام بحلته الجديدة هذه، بعد أن انتشر وطبع وصور مرارًا، وتداوله الشباب في أرجاء المعمورة، قبل أن أجهزه للطبع، وذلك أني كنت قد أهديت منه نسخة بخط يدي إلىٰ بعض إخواننا الجزائريين في الباكستان، وكان آنذاك فصلًا من كتاب كنت أعده في (أساليب الطغاة في الكيد للدعوة والدعاة) حال تقلب الأيام والتنقل بين الديار دون إتمامه، فقام أولئك الإخوة بطبع ذلك الفصل طبعة بحسب إمكاناتهم المتواضعة، ولكنها كانت أول خروجه وسبب انتشاره.

ثم لما فرج الله تعالىٰ بمنه وكرمه بادرت إلىٰ إعداده للطبع خصوصًا بعد أن عاينت طوال مدة اعتقالي وسجني مدىٰ غيظ أعداء الله من هذا الكتاب، فقد كانوا كلما اعتقلوا أخًا يسألونه أول ما يسألونه عن هذا الكتاب، هل قرأه؟ وهل يعرف مؤلفه؟

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم عن جندب بن عبد الله مرفوعًا.

وكان بعضهم يقول لمن يجيب علىٰ ذلك بالإيجاب: «يكفي هذا ليكون فكرك جهاديًا وتقتني سلاحًا، ما اعتقلنا تنظيمًا مسلحًا إلا ووجدنا عنده هذا الكتاب».

فالحمد لله الذي جعله شوكة في حلوقهم وغصة في صدورهم وقرحة في كبودهم وأسأل الله أن يظل لنا سعدًا، ومرعاه للطاغوت سعدانًا[١].

هذا ولقد كنت منذ طبع الكتاب طبعته تلك إلىٰ حين كتابة هذه السطور أنتظر أن يصلني نصح أو تنبيه، وأتحرىٰ أن أقع علىٰ ملحوظات أو وقفات؛ من كثير ممن أطالوا ألسنتهم فينا وفي دعوتنا، وفي هذا الكتاب، ورمونا وبهتونا بما لم يصدر عنا في يوم من الأيام .. حتىٰ خطب أحدهم خطبة جمعة في أحد مساجد الكويت فزعم أني أقول بأني وحدي علىٰ ملة إبراهيم في هذا الزمان، وزعم أننا نكفر الناس جميعهم هكذا، ووصفنا بالخوارج المعاصرين، وغير ذلك من الافتراءات التي ما عادت تنطلي إلا علىٰ مقلدتهم العميان ..

أما طلبة الحق الذين استنارت بصائرهم بنور الوحي، فإنهم يعرفون أن حالنا مع هؤلاء كما قال الشاعر:

وإذا أرادَ اللهُ نشْرَ فضيلةٍ
طُوِيَتْ أتاح لها لسانَ حسودِ

---

(١) السعدان: شوك معروف، جاء في الأحاديث أن كلاليب جهنم علىٰ صفته.

فرغم طول المدة التي نشر فيها الكتاب ورغم كثرة الخصوم والحساد، ووفرة الطاعنين والشانئين لم يصلني طول هذه المدة رد أو نقد أو ملحوظات جادة حول الكتاب، وكل الذي وصلني شقشقات عامة من بعض المخالفين نقلوها مشافهة عن شيوخهم هذا مجملها:

- قالوا إن الله وصف إبراهيم بأنه أواه حليم لأنه كان يجادل عن قوم لوط الكفار، وهذا مناف لعداوتهم التي ذكرتم أنها من ثوابت هذه الملة.

- وقالوا (ويا عجبًا لما قالوا): إننا مأمورون باتباع طريقة محمد ﷺ وملته . .

أما ملة إبراهيم فهي من شرع من قبلنا وشرع من قبلنا ليس شرعًا لنا . .

- وقالوا إن آية الممتحنة المذكورة فيها ملة إبراهيم مدنية، فهي نزلت في مرحلة كان للمسلمين فيها دولة، وقرروا بذلك أن هذه الملة العظيمة إنما تظهر وتتبع فقط عند وجود الدولة . .

- وقالوا إن حديث تكسير الأصنام في مكة حديث ضعيف، وأوضعوا بذلك يبغون رد أهم ما جاء في الكتاب بتضعيف ذلك الحديث.

ولعل القارئ الفطن:

ينتقد علينا تنزّلنا معهم للرد على مثل هذه الأقاويل والتي حقيقتها كما قال الشاعر:

شبهٌ تهافت كالزجاج تخالُها
حقًّا وكُلٌّ كاسرٌ مكسورُ

ولكنني لا أرى مع ذلك مانعًا من التصدي لها مخافة أن تنطلي على البعض أو يتلقفها بعض الأغرار، خاصة وأنه لم يصلني غيرها، فأقول على وجه الاختصار . .

* **أولًا**: أما قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هُود: ٧٤-٧٥].

فليس فيه وجه دلالة يرقع به المجادلون باطلهم فقد روى أهل التفسير أن جدال إبراهيم عن قوم لوط، إنما كان لأجل لوط وليس لأجلهم فذكروا أنه لما سمع قول الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العَنكبُوت: ٣١].

قال: أرأيتم إن كان منهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟

قالوا: لا

قال: فأربعون؟

قالوا: لا

قال: فعشرون؟

قالوا: لا

ثم قال: فعشرة، فخمسة؟

قالوا: لا

قال: فواحد؟

قالوا: لا

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٣٢] . . الآية، وهذا الذي ذكره المفسرون تدل عليه آيات الكتاب . .

فإن من أولىٰ أنواع التفسير تفسير القرآن بالقرآن، فآية سورة هود الأولىٰ تفسرها آية العنكبوت المذكورة . . فهي مبينة مفسرة لها . .

قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢].

ثم هب أن جدال إبراهيم كان عن قوم لوط أنفسهم، أوليس المعرفة بحقيقة دعوة الأنبياء؛ وأنهم كانوا أرحم الناس بأقوامهم،

تستلزم حمل ذلك الجدال علىٰ الحرص علىٰ هدايتهم قبل إهلاكهم؟

أوليس الفقه السليم؛ يقتضي حمل مثل هذا الجدال المطلق، وفهمه علىٰ ضوء قول النبي ﷺ، لما بعث الله إليه مَلَك الجبال ليأمره بما شاء في قومه، حين ردوا دعوته، فقال ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا)، والحديث رواه الشيخان.

أوليس الأدب مع الأنبياء وحسن الظن بهم يقتضي هذا الفهم، ويقتضي تنزيههم عن تلك الأفهام السقيمة، التي تضرب آيات الكتاب بعضها ببعض، وتشوّه دعوة الأنبياء وتزري بهم؛ إذ تجعلهم من المرقّعين للباطل، المجادلين عن الذين يختانون أنفسهم؟؟

وهم الذين ما بعثوا أصلًا إلاّ للبراءة من الشرك وأهله . .

لكن هؤلاء لما لم يجدوا في الأدلة الصريحة ما يرقّع باطلهم صاروا إلىٰ ما تهواه أنفسهم من النصوص المحتملة (ظنية الدلالة)، وأوّلوها بأفهامهم السقيمة، ليطعنوا بها في نحر النصوص المحكمة البينة القطعية، كقوله تعالىٰ في سورة الممتحنة بكل وضوح: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المُمْتَحَنَة: ٤] . . . الآية وتأمل كيف صدّرها الله تعالىٰ بأنها الأسوة الحسنة لنا . .

ثم أتبعها بالتأكيد علىٰ ذلك، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ [المُمْتَحَنَة: ٦] فانظر كيف أعرضوا عن هذا النص المحكم الواضح الصريح، وحاصوا إلىٰ آية سورة هود المتقدمة، والتي يقول الله في آخرها: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ﴾ فتدبر حال القوم كيف تلاعبت بهم الشياطين، واحمد إلهك أن هداك إلىٰ الحق المبين.

واجعل لقلبك مقلتين كلاهما
من خشية الرحمن باكيتان
لو شاء ربك كنت أيضًا مثلهم
فالقلب بين أصابع الرحمن

* **ثانيًا**: أما قولهم، إن ملة إبراهيم من شرع من قبلنا، وشرع من قبلنا ليس بشرع لنا، فهو من العجب العجاب، إذ أين يذهب هؤلاء بقوله تعالىٰ الواضح الصريح: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [المُمْتَحَنَة: ٤]، إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [المُمْتَحَنَة: ٦].

وأين يذهبون بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ [البَقَرَة: ١٣٠].

وبقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وكم من حديث صحيح في السنة، يوصي به النبي ﷺ باتباع الحنيفية السمحة ملة أبينا إبراهيم، فالنصوص كثيرة وصريحة بأن طريقة النبي ﷺ وأصل دعوته، كانت البراءة من الكفار ومعبوداتهم الزائفة وشرائعهم الباطلة، وهي عين طريقة إبراهيم عليه السلام وملته . .

وفي الحديث المتفق عليه: (الأنبياء أولاد علات) أي أن أصلهم واحد وإن اختلفت فروعهم، وأعظم ما دندنا حوله في هذا الكتاب، إنما هو أصل التوحيد ولوازمه من البراءة من الشرك والتنديد بأوليائه . . ومعلوم أن هذا الباب لا نسخ فيه ولا يقال فيه، إنه من شرع من قبلنا، لأن شريعة الأنبياء جميعهم في أصل التوحيد والبراءة من الشرك وأهله واحدة . .

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ . . . [الشورى: ١٣].

* **ثالثًا**: أما قولهم إن آية الممتحنة مدنية نزلت لما كان للمسلمين دولة . .

فنقول قد أكمل الله لنا الدين وأتم علينا بذلك نعمته، فمن أراد اليوم أن يفرق بين ما أنزل الله، بحجة أن هذا مدني وذاك مكي، فليأت ببرهان من الشرع علىٰ ما يريد، وإلا كان من الكاذبين، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وفتح هذا الباب دون ضابط من الشرع أو دليل يدل عليه هو في الحقيقة فتح باب عظيم من الشر علىٰ دين الله، وفيه تعطيل لكثير من أدلة الشريعة، ولو قال قائلهم: إن إظهار هذه الملة العظيمة وإعلانها منوط بالاستطاعة، لما تعرضنا له، لكنهم أرادوا إماتتها بحجة أنها مدنية، نزلت لما كان للمسلمين دولة . . مع أن إبراهيم والذين معه عندما قالوها وصدعوا بها، كانوا مستضعفين ولم تكن لهم دولة، ومع ذلك بيّن الله أن لنا فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . . ومعلوم أن النبي ﷺ سار علىٰ طريقهم، فكان أهم مهمات دعوته طوال حياته سواء المكية منها أو المدنية، الصدع بالتوحيد والبراءة من الشرك والتنديد، وما يتعلق بذلك ويلزم عنه من عرىٰ الإيمان الوثقىٰ . . وسيرته صلوات الله وسلامه عليه شاهدة بذلك وقد ذكرنا لك أمثلة منها في هذا الكتاب . .

ثم هب جدلًا أن ما قالوه في آية الممتحنة المدنية حقًا.

فهل سورة البراءة من الشرك كذلك؟؟ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

وهل قوله تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] .. إلىٰ آخر الآيات كذلك؟؟ وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ الآيات [النجم: ١٩-٢٣].

ومثل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦].

ونحو ذلك من آيات الكتاب المكية وهي كثير ..

وقد ذكرنا في هذا الكتاب قوله تعالىٰ: واصفًا نبيه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ ... [الأنبياء: ٣٦].

فقوله: ﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾: أي يبرأ منها ومن عابديها ويكفر بها ويسفّهها .. فهل هذا كله لم يكن إلا في المدينة فقط..؟ كيف والآيات مكية؟؟ وأمثالها كثير ..

* **رابعًا**: زعم بعضهم أن حديث تكسير النبي ﷺ للصنم في

مكة ضعيف، وظنوا أنهم بذلك يهدمون أهم ما جاء في الكتاب من معالم هذه الملة العظيمة . .

فنقول أولًا: الحديث ثابت بإسناد حسن وهو مرويّ في مسند الإمام أحمد (١/ ٨٤).

قال عبد الله حدثني أبي حدثنا أسباط بن محمد حدثنا نعيم بن حكيم المدائني عن أبي مريم عن علي ﵁ قال: «انطلقت أنا والنبي ﷺ حتىٰ أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ: (اجلس. وصعد علىٰ منكبي فذهبت لأنهض به، فرأىٰ مني ضعفًا، فنزل وجلس لي نبي الله ﷺ وقال: اصعد علىٰ منكبي، قال: فصعدت علىٰ منكبيه قال فنهض بي قال: فإنه يخيل إليَّ أني لو شئت لنلت أفق السماء حتىٰ صعدت علىٰ البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه، حتىٰ إذا استمكنت منه قال لي رسول الله ﷺ: «اقذف به»، فقذفت به، فتكسّر كما تتكسّر القوارير، ثم نزلت، فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق حتىٰ توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس).

قلت: أسباط بن محمد: ثقة، إنما ضعف في الثوري، وهو هنا لم يروه عنه.

ونعيم بن حكيم المدائني: وثقه يحيىٰ بن معين والعجلي كما في تاريخ بغداد (١٣/ ٣٠٣).

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل في المسند أيضًا (١/ ١٥١): حدثني نصر ابن علي، ثنا عبد الله بن داود، عن نعيم بن حكيم، عن علي رضي الله عنه قال: (كان علىٰ الكعبة أصنام فذهبت لأحمل النبي ﷺ إليها فلم أستطع فحملني فجعلت أقطعها ولو شئت لنلت السماء).

وأورد الهيثمي الحديث في مجمع الزوائد (٦/ ٢٣) (باب تكسيره ﷺ الأصنام) وقال عقبة: (رواه أحمد وابنه أبو يعلىٰ والبزار، زاد بعد قوله حتىٰ استترنا بالبيوت: فلم يوضع عليها بعد؛ يعني شيئًا من تلك الأصنام) قال: (ورجال الجميع ثقات).

وقال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٣/ ٣٠٢، ٣٠٣): حدثنا أبو نعيم الحافظ إملاء، حدثنا أبو بكر أحمد بن يوسف بن خلاد، حدثنا محمد بن يونس، حدثنا عبد الله بن داود الخريبي، عن نعيم بن حكيم المدائني، قال حدثني أبو مريم عن علي ابن أبي طالب، قال: (انطلق بي رسول الله ﷺ إلىٰ الأصنام فقال: (اجلس) فجلست إلىٰ جنب الكعبة ثم صعد رسول الله ﷺ علىٰ منكبي ثم قال: (انهض بي إلىٰ الصنم)، فنهضت فلما رأىٰ ضعفي تحته قال: اجلس، فجلست وأنزلته عني وجلس لي رسول الله ﷺ ثم قال لي: (يا عليّ اصعد علىٰ منكبي) فصعدت علىٰ منكبيه، ثم نهض بي رسول الله ﷺ، فلما نهض خيل إلي أني لو شئت نلت السماء وصعدت علىٰ الكعبة، وتنحىٰ

رسول الله ﷺ، فألقيت صنمهم الأكبر -صنم قريش- وكان من نحاس موتدًا بأوتاد من حديد إلىٰ الأرض، فقال لي رسول الله ﷺ: (عالجه) فعالجته فما زلت أعالجه ورسول الله ﷺ يقول: (إيه، إيه، إيه)، فلم أزل أعالجه حتىٰ استمكنت منه، فقال: «دقه» فدققته وكسرته، ونزلت).

قلت: أبو مريم: هو قيس الثقفي المدائني، يروي عن علي وعنه نعيم بن حكيم، ذكره ابن حبان في الثقات، ووثقه النسائي، ولكنه كما قال الحافظ ابن حجر: (وهم في قوله أن أبا مريم الحنفي يسمىٰ قيسًا، والصواب أن الذي يسمىٰ قيسًا هو أبو مريم الثقفي .. إلىٰ أن قال: علىٰ أن النسخة التي وقفت عليها من كتاب التمييز للنسائي إنما فيه أبو مريم قيس الثقفي نعم ذكره في التمييز .. وأما أبو مريم الحنفي فلم يذكره النسائي لأنه لم يذكر إلا من عرفه) اهـ.

والذين تكلموا في الحديث خلطوا بين الرجلين .. فتنبه لهذا .. وقد وثقه أيضًا الحافظ الذهبي في الكاشف (٣/ ٣٧٦) وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، والبخاري في التاريخ الكبير، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا .. فهو غير الحنفي وغير الكوفي أيضًا راجع ميزان الاعتدال (٤/ ٥٧٣).

والحديث صححه العلامة أحمد شاكر فقال في هامش تحقيقه للمسند (٢/ ٥٨): «إسناده صحيح، نعيم بن حكيم وثقه ابن معين

وغيره وترجم له البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٢/ ٩٩ فلم يذكر فيه جرحًا، أبو مريم: هو الثقفي المدائني، وهو ثقة وترجم له البخاري أيضًا (٤/ ١/ ١٥١) فلم يذكر فيه جرحًا ... قال: ومن الواضح أن هذه القصة كانت قبل الهجرة» اهـ.

أقول: ومع هذا فقد قلنا في هذا الكتاب بعد أن سقنا الحديث: (ومع ذلك نقول لو سلمنا جدلًا أنه لم يصح عن النبي ﷺ تحطيم الأصنام في مكة زمن الاستضعاف، فإنه صلوات الله وسلامه عليه كان متبعًا لملة إبراهيم أشد الاتباع آخذًا بها بقوة، فما داهن الكفار لحظة واحدة وما سكت عن باطلهم أو عن آلهتهم، بل كان همه وشغله الشاغل في تلك الثلاث عشرة سنة، بل وغيرها هو: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، فلا يعني كونه جلس بينها تلك الثلاث عشرة سنة، أنه مدحها أو أثنىٰ عليها أو أقسم علىٰ احترامها ...) إلىٰ قولنا: (بل كان يعلن براءته من المشركين وأعمالهم، ويبدي كفره بآلهتهم رغم استضعافه واستضعاف أصحابه، وقد فصلنا لك هذا فيما مضىٰ ولو تأملت القرآن المكي لوضح لك من ذلك الكثير .. إلخ).

فالمسألة إذن ليست كما يظنها هؤلاء القوم، موقوفة علىٰ حديث فرد يقضىٰ عليها بتضعيفه، بل لها شواهد عظيمة، وبراهين صريحة، وأصول ثابتة، وقواعد راسية من أدلة الشرع، لا يقوىٰ علىٰ ردها إلا مكابر جاحد.

فـالـحـق ركـنٌ لا يـقـومُ لـهـدّه
أحـدٌ ولـو جـمـعـت لـه الـثـقـلان

ولعل في هذا القدر الكفاية لمن أراد الهداية.

وقبل أن أختم هذه المقدمة أحب أن أضيف إليها، بأنني كنت قد ناظرت في السجن بعض أفراد حزب سياسي إرجائي معروف، حول موضوع (الإيمان) ومتعلقاته . .

وكان فيهم رأس من رؤوسهم، فكان فيما احتجّ به ترقيعًا لعساكر الشرك والقانون، قصة حاطب بن أبي بلتعة، وقصة أبي لبابة الأنصاري، فزعم أن حاطب تجسس للكفار ووالاهم، وأن أبا لبابة خان الله والرسول، ومع ذلك لم يكفّرهما رسول الله ﷺ(١) ومن ثم قاس حرابه عساكر الشرك والقانون للشريعة وعداوتهم لأهلها، علىٰ فعل هذين الصحابيين الجليلين. وخرج من ذلك بأن أنصار الطواغيت وعساكرهم، الذين يفنون أعمارهم في حراسة الشرك والقانون، وحفظ عروش الطواغيت وحرب الشريعة وأهلها، لا يجوز تكفيرهم، لأن جرائمهم لا تعدوا فعل حاطب أو فعل أبي لبابة. . ! بل زاد علىٰ ذلك أن استشاط غضبًا لما نقلنا عنه أنه لا يكفّر عساكر الشرك والقانون، بل يقول عنهم ظلمة وفجار، فثار لذلك واتهمنا بأننا غيرنا سياق

(١) وقد كتبت ردًا علىٰ مقالتهم هذه، في رسالة من رسائل السجن سميتها: «الشهاب الثاقب في الرد علىٰ من افترىٰ علىٰ الصحابي حاطب».

كلامه، فهو كما قال لم يصفهم بأنهم ظلمة وفجار، هكذا بإطلاق، وإنما قال في سياق الدفع عن تكفيرهم: «قد يكون بعضهم ظلمة أو فجارًا» أي بحسب حال آحادهم، لا بسبب طبيعة عملهم، ونصرتهم للطواغيت وحربهم للشريعة وأهلها . .

فقلت لهم: عجبًا لكم تتحرجون من وصف جند الطواغيت وعساكر الشرك والتنديد بالظلم والفجور، ولا تتحرجون من القول عن حاطب: والَىٰ الكفار وتجسس لهم، وعن أبي لبابة: خان الله والرسول!! وكان هذا فراق بيننا وبينهم . .

ولما حاول بعض الإسلاميين في السجن أن يجمعوا ويصلحوا بيننا، جرىٰ بيننا وبينهم بعض الكلام، فوجدناهم علىٰ ما كانوا عليه من المقال، فقلت لهم: (أنا لست علىٰ صحبتكم بحريص، لأنكم لا تتحرجون من الكلام في بعض أصحاب النبي ﷺ ووصفهم بالخيانة، بينما تتحرجون من وصف أعداء الله وجند الطواغيت بالظلم والفجور . . لذا فلسنا والله حريصون علىٰ صحبتكم وإنما نداريكم ونتجنب الانشغال بكم، لأننا في سجن وبين أعداء الله تعالىٰ[1] وهنا غضب ناطقهم وأخرج ما كان يكنه

(١) مع العلم أنهم كانوا في السجن سلْمًا علىٰ أعداء الله حربًا علىٰ دعوة التوحيد بل ويصلون خلف عساكر الشرك والقانون دونما إكراه، فنحن نقيم الجمعة والجماعة وحدنا ويصلي معنا سجناء آخرين، أما هؤلاء فيصلون خلف أهل الشرك والتنديد، ويبادرونهم بالسلام والإكرام وبعضهم يقبلهم ويهنئهم =

في صدره وقال: (أنت أصلًا رجل تدعو إلىٰ ملة إبراهيم، والذي يدعو إلىٰ ملة إبراهيم رجل مشبوه سياسيًا، يدعو إلىٰ الذي يصالح اليهود والنصارىٰ، الذين هم من أبناء إبراهيم) أهـ - وما سقت القصة هنا إلا لأجل هذا، وهو محل الشاهد منها . .

فلا أدري ما أقول في هذا؟؟

وبأي شيء أردّ علىٰ أناس يرومون إقامة الخلافة، وهم لا يميزون بين مقولة (أبناء إبراهيم) التي يروج لها الطواغيت اليوم ليؤاخوا اليهود ويصالحوهم، وهي مقولة يراد بها هدم عرىٰ الإيمان، وتمييع أصل الدين، ودك قواعد الولاء والبراء . . وقد رد الله تعالىٰ عليهم فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

فلا يميزون بين هذه المقولة وبين (ملة إبراهيم) التي فرقت بين الآباء والأبناء، إذ هي الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، والتي قال الله تعالىٰ عنها في القرآن: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ . . [البقرة: ١٣٠].

وقد فصلناها لك في هذا الكتاب . . فتأملها ولا تلتفت إلىٰ شغب المخالفين . .

= بالمناسبات والأعياد، بل رأينا ممن ينتسبون للدعوة إلىٰ الإسلام من يهنئهم علىٰ رتبهم الطاغوتية الكفرية.

وهكذا أخا التوحيد .. وللأسف الشديد فإنني طوال المدة السابقة من طباعة الكتاب لم يصلني من المخالفين المجادلين الطاعنين فينا وفي دعوتنا إلا أمثال هذه المهاترات التي ما كان ينبغي لنا أن نتنزل معهم في الرد عليها .. لولا معرفتنا لأحوال أهل زماننا، واندراس أعلام ومعالم هذه الملة العظيمة بينهم، وأن فيهم سماعون لأهل الزيغ الذين وصفهم الله تعالىٰ في مطلع سورة آل عمران ..

فأسأله تعالىٰ أن ينصر دينه ويكبت أعدائه ..

وأن يستعملنا ما حيينا في نصرة هذه الملة، ويجعلنا من جندها وعساكرها ويتقبل منا ويختم لنا بالشهادة في سبيله .. إنه جواد كريم.

وصلىٰ الله علىٰ نبيه محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين ..

أبو محمد

بسم الله وهو حسبي ونعم الوكيل

فصل

في بيان ملة إبراهيم

يقول تعالىٰ عن ملة إبراهيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

ويقول أيضًا مخاطبًا نبيه محمد ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

بهذه النصاعة، وبهذا الوضوح بين الله تعالىٰ لنا المنهاج والطريق . . . فالطريق الصحيح والمنهاج القويم . . هو ملة إبراهيم . . . لا غموض في ذلك ولا التباس، ومن يرغب عن هذه الطريق بحجة مصلحة الدعوة أو أن سلوكها يجر فتنًا وويلات علىٰ المسلمين، أو غير ذلك من المزاعم الجوفاء . . التي يلقيها الشيطان في نفوس ضعفاء الإيمان - فهو سفيه، مغرور يظن نفسه أعلم بأسلوب الدعوة من إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي زكاه الله فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١]، وقال: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]،

وزكىٰ دعوته لنا وأمر خاتم الأنبياء والمرسلين باتباعها، وجعل السفاهة وصفًا لكل من رغب عن طريقه ومنهجه. وملة إبراهيم هي:

* إخلاص العبادة لله وحده، بكل ما تحويه كلمة العبادة من معان[1].

---

(١) ولن يستطيع العبد مواجهة الشرك وأهله ولن يقوىٰ علىٰ التبرؤ منهم وإظهار العداوة لباطلهم إلا بعبادة الله حق عبادته، ولقد أمر الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ بتلاوة القرآن وقيام الليل في مكة وأعلمه بأن ذلك هو الزاد الذي يعينه علىٰ تحمل أعباء الدعوة الثقيلة وذلك قبل قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٥]، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ١-٤]، فقام صلوات الله وسلامه عليه وقام معه أصحابه حتىٰ تفطرت أقدامهم .. إلىٰ أن أنزل سبحانه التخفيف في آخر الآيات.

وإن هذا القيام بتلاوة آيات الله ﷻ وتدبر كلامه .. لخير زاد ومعين للداعي، يثبته ويعينه علىٰ مشاق الدعوة وعقباتها .. وإن الذين يظنون أنفسهم قادرين علىٰ تحمل الدعوة العظيمة بأعبائها الثقيلة بدون إخلاص العبادة لله ﷻ وبدون إطالة ذكره وتسبيحه لمخطئون وواهمون .. وإن ساروا خطوات، فلن يستطيعوا مواصلة الطريق الصحيح المستقيم بغير زاد .. وإن خير الزاد التقوىٰ ..

ولقد وصف الله ﷻ أصحاب هذه الدعوة والذين أمر نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن يصبر نفسه معهم بأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وبأنهم قليلًا من الليل ما يهجعون .. وتتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا .. ويخافون من ربهم يومًا عبوسًا قمطريرًا .. وغير ذلك من الصفات التي لا يصلح لهذه الدعوة وتحمل أعبائها إلا من اتصف بها، جعلنا الله تعالىٰ وإياك منهم، فتنبه!!

* والبراءة من الشرك وأهله.

يقول الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ: «أصل دين الإسلام وقاعدته أمران:

الأول: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والتحريض علىٰ ذلك والموالاة فيه وتكفير من تركه.

الثاني: الإنذار عن الشرك في عبادة الله والتغليظ في ذلك والمعاداة فيه وتكفير من فعله»اهـ.

وهذا هو التوحيد الذي دعا إليه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .. وهو معنىٰ لا إله إلا الله. إخلاص وتوحيد وإفراد لله ﷻ في العبادة والولاء لدينه ولأوليائه، وكفر وبراءة من كل معبود سواه ومعاداة أعدائه ..

فهو توحيد اعتقادي وعملي في آن واحد .. فسورة الإخلاص دليل علىٰ الاعتقادي منه وسورة الكافرون دليل علىٰ العملي، وكان النبي صلوات الله وسلامه عليه يكثر من القراءة بهاتين السورتين ويداوم عليهما في سنة الفجر وغيرها .. لأهميتهما البالغة.

- **تنبيه لا بد منه**: وقد يظن ظان أن ملة إبراهيم هذه تتحقق في زماننا هذا بدراسة التوحيد، ومعرفة أقسامه وأنواعه الثلاثة معرفة نظرية وحسب .. مع السكوت عن أهل الباطل وعدم إعلان وإظهار البراءة من باطلهم.

فلمثل هؤلاء نقول: لو أن ملة إبراهيم كانت هكذا لما ألقاه قومه من أجلها في النار، بل ربما لو أنه داهنهم وسكت عن بعض باطلهم ولم يسفه آلهتهم ولا أعلن العداوة لهم واكتفىٰ بتوحيد نظري يتدارسه مع أتباعه تدارسًا لا يخرج إلىٰ الواقع العملي متمثلًا بالولاء والبراء والحب والبغض والمعاداة والهجران في الله. ربما لو أنه فعل ذلك لفتحوا له جميع الأبواب، بل ربما أسسوا له مدارس ومعاهد كما في زماننا يدرس فيها هذا التوحيد النظري . . ولربما وضعوا عليها لافتات ضخمة وسموها: مدرسة أو معهد التوحيد، وكلية الدعوة وأصول الدين . . وما إلىٰ ذلك . . فهذا كله لا يضرهم، ولا يؤثر فيهم ما دام لا يخرج إلىٰ الواقع والتطبيق . . ولو خرجت لهم هذه الجامعات والمدارس والكليات آلاف الأطروحات ورسائل الماجستير والدكتوراه في الإخلاص والتوحيد والدعوة . . لما أنكروا ذلك عليها، بل لباركوها ومنحوا أصحابها جوائز وشهادات وألقابًا ضخمة، ما دامت لا تتعرض لباطلهم وحالهم وواقعهم وما دامت علىٰ ذلك الحال الممسوخ.

* يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن في الدرر السنية: (لا يُتصور أن -أحدًا- يعرف التوحيد ويعمل به ولا يعادي المشركين ومن لم يعادهم لا يقال له عرف التوحيد وعمل به) أهـ. جزء الجهاد ص١٦٧.

وكذلك رسول الله ﷺ لو أنه سكت في بادئ الأمر عن تسفيه أحلام قريش والتعرض لآلهتهم وعيبها ولو أنه «حاشاه» كتم الآيات التي فيها تسفيه لمعبوداتهم كاللات والعزىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ . . والآيات التي تتعرض لأبي لهب والوليد وغيرهما . . وكذا آيات البراءة منهم ومن دينهم ومعبوداتهم - وما أكثرها كسورة (الكافرون) وغيرها . . لو فعل ذلك . . وحاشاه من ذلك . . لجالسوه ولأكرموه وقرّبوه . . ولما وضعوا علىٰ رأسه سلىٰ الجزور وهو ساجد، ولما حصل له ما حصل من أذاهم مما هو مبسوط ومذكور في الثابت من السيرة . . ولما احتاج إلىٰ هجرة وتعب ونصب وعناء . . ولجلس هو وأصحابه في ديارهم وأوطانهم آمنين . . فقضية موالاة دين الله وأهله ومعاداة الباطل وأهله فُرضت علىٰ المسلمين في فجر دعوتهم قبل فرض الصلاة والزكاة والصوم والحج، ومن أجلها لا لغيرها حصل العذاب والأذىٰ والابتلاء.

* يقول الشيخ حمد بن عتيق في رسالة له في الدرر السنية: (فليتأمل العاقل وليبحث الناصح لنفسه عن السبب الحامل لقريش علىٰ إخراج رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة وهي أشرف البقاع، فإن المعلوم أنهم ما أخرجوهم إلا بعدما صرحوا لهم بعيب دينهم وضلال آبائهم، فأرادوا منه ﷺ الكف عن ذلك وتوعدوه وأصحابه بالإخراج، وشكا إليه أصحابه شدة أذىٰ المشركين لهم، فأمرهم بالصبر والتأسي بمن كان قبلهم ممن أوذي، ولم يقل لهم اتركوا

عيب دين المشركين وتسفيه أحلامهم، فاختار الخروج بأصحابه ومفارقة الأوطان مع أنها أشرف بقعة علىٰ وجه الأرض ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أهـ. من جزء الجهاد ص١٩٩.

وهكذا فإن الطواغيت في كل زمان ومكان لا يظهرون الرضا عن الإسلام أو يهادنونه ويقيمون له المؤتمرات وينشرونه في الكتب والمجلات ويؤسسون له المعاهد والجامعات إلا إذا كان دينًا أعور أعرج مقصوص الجناحين بعيدًا عن واقعهم وعن موالاة المؤمنين والبراءة من أعداء الدين وإظهار العداوة لهم ولمعبوداتهم ومناهجهم الباطلة.

وإننا لنشاهد هذا واضحًا في الدولة المسماة «السعودية» فإنها تغر الناس بتشجيعها للتوحيد وكتب التوحيد، وبسماحها بل وحثها للعلماء علىٰ محاربة القبور والصوفية وشرك التمائم والتوله والأشجار والأحجار . . وغير ذلك مما لا تخشاه ولا يضرها أو يؤثر في سياساتها الخارجية والداخلية . . وما دام هذا التوحيد المجزأ الناقص بعيدًا عن السلاطين وعروشهم الكافرة فإنه يتلقىٰ منهم الدعم والمساندة والتشجيع . . .

يقول الشيخ العلامة حمد بن عتيق رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك: (إن كثيرًا من الناس قد يظن أنه إذا قدر علىٰ أن يتلفظ بالشهادتين وأن يصلي الصلوات الخمس، ولا يرد عن المسجد فقد أظهر دينه وإن كان مع ذلك

بين المشركين أو في أماكن المرتدين، وقد غلطوا في ذلك أقبح الغلط.

واعلم أن الكفر له أنواع وأقسام بتعدد المكفرات وكل طائفة من طوائف الكفر قد اشتهر عندها نوع منه، ولا يكون المسلم مظهرًا لدينه حتىٰ يخالف كل طائفة بما اشتهر عندها ويصرح لها بعداوته، والبراءة منه..) أهـ.

ويقول أيضًا في الدرر السنية: (وإظهار الدين: تكفيرهم وعيب دينهم والطعن عليهم والبراءة منهم والتحفظ من موادتهم والركون إليهم واعتزالهم، وليس فعل الصلوات فقط إظهارًا للدين) أهـ. من جزء الجهاد ص١٩٦.

ويقول الشيخ سليمان بن سحمان في ديوان عقود الجواهر المنضدة الحسان ص٧٦، ٧٧:-

إظهار هذا الدين تصريح لهم
بالكفر إذْ هم معشر كفار
وعداوة تبدو وبغض ظاهر
يا للعقول أما لكم أفكار
هذا وليس القلب كاف بغضه
والحب منه وما هو المعيار
لكنما المعيار أن تأتي به
جهرًا وتصريحًا لهم وجهار

ويقول الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن في جزء الجهاد من الدرر السنية ص١٤١: (ودعوىٰ من أعمىٰ الله بصيرته وزعم أن إظهار الدين هو عدم منعهم من يتعبد أو يدرس دعوىٰ باطلة، فزعمه مردود عقلًا وشرعًا، ولِيَهْنَ من كان في بلاد النصارىٰ والمجوس والهند ذلك الحكم الباطل، لأن الصلاة والآذان والتدريس موجود في بلدانهم..) أهـ.

ورحم الله من قال:

يظنون أن الدين لبيك في الفلا
وفعل صلاة والسكوت عن الملا
وسالم وخالط من لذا الدين قد قلا
وما الدين إلا الحب والبغض والولا
كذاك البرا من كل غاوٍ وآثمِ

* ويقول أبو الوفاء بن عقيل رحمه الله تعالىٰ: (إذا أردت أن تعرف محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلىٰ ازدحامهم في أبواب المساجد ولا في ضجيجهم بلبيك ولكن انظر إلىٰ مواطأتهم لأعداء الشريعة، فاللجا اللجا إلىٰ حصن الدين والاعتصام بحبل الله المتين، والانحياز إلىٰ أوليائه المؤمنين، والحذر الحذر من أعدائه المخالفين، فأفضل القرب إلىٰ الله تعالىٰ، مقت من حاد الله ورسوله وجهاده باليد واللسان والجنان بقدر الإمكان) أهـ من الدرر السنية - جزء الجهاد ص٢٣٨.

تنبيه ثان: وفي مقابل هذه البراءة من الشرك وأهله . . هناك أيضًا : (موالاة دين الله وأوليائه ونصرتهم ومؤازرتهم والنصح لهم وإبداء ذلك وإظهاره) حتىٰ تتآلف القلوب وتتراص الصفوف، ومهما عنّفنا إخواننا الموحدين المنحرفين عن جادة الصواب ومهما شدّدنا في النصح لهم ونقد طرائقهم المخالفة لطريق الأنبياء . . فالمسلم للمسلم كما يقول شيخ الإسلام كاليدين تغسل إحداهما الأخرىٰ، وربما احتاج إزالة الوسخ أحيانًا إلىٰ شيء من الشدة التي تُحمد عاقبتها، لأن المقصود من ورائها الإبقاء علىٰ سلامة اليدين ونظافتهما . . ولا نستجيز بحال من الأحوال التبرؤ منهم بالكلية، لأن للمسلم علىٰ أخيه حق الموالاة التي لا تنقطع إلا بالردة والخروج من دائرة الإسلام . . وقد عظّم الله سبحانه من شأن هذا الحق فقال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. والمسلم المنحرف إنما يتبرأ من باطله أو بدعته وانحرافه مع بقاء أصل الموالاة . . ألم تر أن أحكام قتال البغاة وأمثالهم . . تختلف مثلًا عن أحكام قتال المرتدين . . . ولا نقر أعين الطغاة ونفرحهم بعكس ذلك أبدًا، كما يفعل كثير من المنتسبين إلىٰ الإسلام ممن اختل لديهم ميزان الولاء والبراء في هذا الزمان، فبالغوا في البراءة والشماتة من مخالفيهم الموحدين والتحذير منهم بل ومن كثير من الحق الذي عندهم وربما علىٰ صفحات الجرائد النتنة المعادية للإسلام والمسلمين ناهيك عن إغراء السفهاء والحكام بهم وبدعواتهم . .

حتىٰ ليُشارك كثير من هؤلاء الدعاة أولئك الحكام بالقضاء عليهم وعلىٰ دعواتهم بإلصاق التهم الباطلة بهم أو ترقيع الفتاوىٰ للطواغيت لقمعهم، كأن يقولوا عنهم: بغاة أو خوارج أو أخطر علىٰ الإسلام من اليهود والنصارىٰ، إلىٰ غير ذلك . . وأعرف كثيرًا ممن يفرح بوقوع من يخالفهم من المسلمين بأيدي الطغاة، ويقولون: (يستاهل) أو (زين يسوون فيه) إلىٰ غير ذلك من الكلمات التي ربما تهوي بأحدهم في جهنم سبعين خريفًا من حيث لا يدري وهو لا يُلقي لها بالًا.

واعلم أن من أخص خصائص ملة إبراهيم ومن أهم مهماتها التي نرىٰ غالبية دعاة زماننا مقصرين فيها تقصيرًا عظيمًا بل أكثرهم هجرها وأماتها:-

- إظهار البراءة من المشركين ومعبوداتهم الباطلة.

- وإعلان الكفر بهم وبآلهتهم ومناهجهم وقوانينهم وشرائعهم الشركية.

- وإبداء العداوة والبغضاء لهم ولأوضاعهم ولأحوالهم الكفرية حتىٰ يرجعوا إلىٰ الله، ويتركوا ذلك كله ويبرأوا منه ويكفروا به.

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [المُمتَحنَة: ٤].

* يقول العلامة ابن القيم: (لما نهىٰ الله تعالىٰ المؤمنين عن موالاة الكفار اقتضىٰ ذلك معاداتهم والبراءة منهم ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال) أهـ. من بدائع الفوائد (٣/ ٦٩).

* ويقول الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله تعالىٰ: (فقوله: ﴿وَبَدَا﴾ أي ظهر وبان، وتأمل تقديم العداوة علىٰ البغضاء، لأن الأولىٰ أهم من الثانية، فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم فلا يكون آتيًا بالواجب عليه حتىٰ تحصل منه العداوة والبغضاء، ولا بد أيضًا من أن تكون العداوة والبغضاء باديتين ظاهرتين بيّنتين. واعلم أنه وإن كانت البغضاء متعلقة بالقلب، فإنها لا تنفعه حتىٰ تظهر آثارها وتتبين علاماتها، ولا تكون كذلك حتىٰ تقترن بالعداوة والمقاطعة، فحينئذ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين) أهـ. «من سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك».

* ويقول الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن: (ولا يكفي بغضهم بالقلب، بل لا بد من إظهار العداوة والبغضاء -وذكر آية الممتحنة السابقة ثم قال- فانظر إلىٰ هذا البيان الذي ليس بعده بيان، حيث قال: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا﴾ أي ظهر، هذا هو إظهار الدين فلا بد من التصريح بالعداوة وتكفيرهم جهارًا والمفارقة بالبدن، ومعنىٰ العداوة أن تكون في عَدْوَة والضدّ في عْدْوَة أخرىٰ كما أن أصل البراءة المقاطعة بالقلب واللسان والبدن، وقلب المؤمن لا يخلو

من عداوة الكافر، وإنما النزاع في إظهار العداوة . . .) أهـ. من الدرر ص١٤١ جزء الجهاد.

* ويقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (صاحب كتاب فتح المجيد) حول آية الممتحنة السابقة: (فمن تدبر هذه الآيات عرف التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه وعرف حال المخالفين لما عليه الرسل وأتباعهم من الجهلة المغرورين الأخسرين قال شيخنا الإمام رَحِمَهُ اللهُ -يعني جده محمد بن عبد الوهاب- في سياق دعوة النبي ﷺ قريشًا إلىٰ التوحيد وما جرىٰ منهم عند ذكر آلهتهم بأنهم لا ينفعون ولا يضرون أنهم جعلوا ذلك شتمًا، «فإذا عرفت هذا عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين[1] والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . .﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية، فإذا فهمت هذا فهمًا جيدًا عرفت أن كثيرًا ممن يدعي الدين لا يعرفه، وإلا فما الذي حمل المسلمين على الصبر علىٰ ذلك العذاب والأسر والهجرة إلىٰ الحبشة مع أنه أرحم الناس ولو وجد لهم رخصة أرخص لهم، كيف وقد أنزل الله عليه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] فإذا كانت هذه

---

(١) انظر الهامش التالي.

الآية فيمن وافق بلسانه فكيف بغير ذلك»؛ يعني من وافقهم بالقول والفعل بلا أذىً فظاهرهم وأعانهم وذب عنهم وعن من وافقهم وأنكر علىٰ من خالفهم كما هو الواقع» -الدرر- جزء الجهاد ص٩٣ وأنا أقول لهم: لله درك كأنك تتكلم في زماننا . . .

* ويقول الشيخ محمد بن عبد اللطيف في الدرر السنية: اعلم وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضىٰ أنه لا يستقيم للعبد إسلام ولا دين إلا بمعاداة أعداء الله ورسوله(١)، وموالاة أولياء الله ورسوله قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [التوبة: ٢٣] أهـ. من جزء الجهاد ص٢٠٨.

وهذا هو دين جميع المرسلين . . وهذه هي دعوتهم وطريقتهم كما تدل عليه عموم آيات القرآن وأخبار النبي ﷺ . .

---

(١) إن أريد أصل العداوة فالكلام علىٰ إطلاقه، وإن أريد عموم العداوة؛ إظهارها وتفاصيلها والصدع بها، فالكلام في استقامة الإسلام لا في زوال أصله، وللشيخ عبد اللطيف في كتابه «مصباح الظلام» تفصيل حول هذا الموضوع، فليراجعه من شاء، وفيه قوله: (فالذي يفهم تكفير من لم يصرح بالعداوة من كلام الشيخ فهمه باطل ورأيه ضال. .) أهـ. وسيأتي تفصيل كلامه لاحقا في هذه الأوراق، ونحن إنما أوردنا مقولاتهم في هذا الفصل لبيان أهمية هذا الأصل الذي طمست معالمه عند أكثر دعاة هذا الزمان. ثم ألحقنا هذه التوضيحات -رغم وضوح الكلام- لنسد الطريق علىٰ من يحاولون الصيد في الماء العكر؛ فيبحثون عن عمومات وأشياء ترقّع لهم رمَينا بعقيدة الخوارج.

وكذلك قوله تعالىٰ في آية الممتحنة هذه ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي المرسلين الذين علىٰ دينه وملته . . قاله غير واحد من المفسرين.

* ويقول الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن: (وهذا هو إظهار الدين لا كما يظن الجهلة من أنه إذا تركه الكفار وخلوا بينه وبين أن يصلي ويقرأ القرآن ويشتغل بما شاء من النوافل أنه يصير مظهرًا لدينه هذا غلط فاحش فإن من يصرح بالعداوة للمشركين والبراءة منهم لا يتركونه بين أظهرهم بل إما قتلوه وإما أخرجوه إن وجدوا إلىٰ ذلك سبيلًا كما ذكره الله عن الكفار قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ﴾ [إبراهيم: ١٣] الآية. وقال إخبارًا عن قوم شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٨] الآية. وذكر عن أهل الكهف أنهم قالوا: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠] وهل اشتدت العداوة بين الرسل وقومهم إلا بعد التصريح بمسبة دينهم وتسفيه أحلامهم وعيب آلهتهم) أهـ. الدرر - جزء الجهاد ص٢٠٧.

* ويقول الشيخ سليمان بن سحمان عند آية الممتحنة أيضًا: (فهذه هي ملة إبراهيم التي قال الله فيها: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فعلىٰ المسلم أن يعادي أعداء الله ويظهر عداوتهم ويتباعد عنهم كل التباعد وأن لا يواليهم

ولا يعاشرهم ولا يخالطهم . . .) أهـ ص٢٢١، جزء الجهاد - الدرر السنية.

وأخبر الله تعالىٰ عن إبراهيم عليه السلام في موضع آخر: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٦].

وفي موضع ثالث يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧].

* يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (وقد افترض الله تعالىٰ البراءة من الشرك والمشركين والكفر بهم وعداوتهم وبغضهم وجهادهم: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]، فوالوهم وأعانوهم وظاهروهم، واستنصروا بهم علىٰ المؤمنين وأبغضوهم وسبوهم من أجل ذلك، وكل هذه الأمور تناقض الإسلام كما دل عليه الكتاب والسنة في مواضع).

- وهاهنا شبهة يطرحها كثير من الناس، وهي قولهم إن ملة إبراهيم هذه إنما هي مرحلة أخيرة من مراحل الدعوة، يسبقها البلاغ بالحكمة والجدال بالتي هي أحسن، ولا يلجأ الداعية إلىٰ ملة إبراهيم هذه من البراءة من أعداء الله ومعبوداتهم والكفر بها وإظهار العداوة والبغضاء لهم إلا بعد استنفاذ جميع أساليب اللين

والحكمة . . فنقول وبالله التوفيق: إن هذا الإشكال إنما حصل بسبب عدم وضوح ملة إبراهيم لدىٰ هؤلاء الناس، وبسبب الخلط بين طريقة الدعوة للكفار ابتداء وطريقتها مع المعاندين منهم . . وأيضًا الفرق بين ذلك كله وبين موقف المسلم من معبودات ومناهج وشرائع الكفار الباطلة نفسها . . فملة إبراهيم من حيث أنها إخلاص للعبادة لله وحده وكفر بكل معبود سواه لا يصح أن تؤخر أو تؤجل . . بل ينبغي أن لا يبدأ إلا بها، لأن ذلك هو تمامًا ما تحويه كلمة لا إله إلا الله من النفي والإثبات وهو أصل الدين وقطب الرحىٰ في دعوة الأنبياء والمرسلين، ولأجل أن يزول عنك، كل إشكال فهاهنا قضيتان:

* **الأولىٰ**: وهي البراءة من الطواغيت والآلهة التي تعبد من دون الله ﷻ والكفر بها، فهذه لا تؤخر ولا تؤجل . . بل ينبغي أن تظهر وتعلن منذ أول الطريق.

* **الثانية**: البراءة من الأقوام المشركين هم أنفسهم إن أصروا علىٰ باطلهم. وإليك التفصيل والبيان:-

القضية الأولىٰ: وهي الكفر بالطواغيت التي تعبد من دون الله ﷻ، سواء اكانت هذه الطواغيت أصنامًا من حجر، أو شمسًا أو قمرًا، أو قبرًا أو شجرًا، أو تشريعات وقوانين من وضع البشر . . فملة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين تستلزم إظهار الكفر بهذه المعبودات كلها وإبداء العداوة والبغضاء لها،

وتسفيه قدرها والحط من قيمتها وشأنها وإظهار زيفها ونقائصها وعيوبها منذ أول الطريق. وهكذا كان حال الأنبياء حين كانوا يبدأون دعوتهم لأقوامهم بقولهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، ومن هذا قول الله تعالىٰ عن الحنيف إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥].

وقوله في الأنعام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ .. [الزخرف: ٢٦-٢٧].

وكذا قوله سبحانه عن قوم إبراهيم: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]. قال المفسرون: ﴿يَذۡكُرُهُمۡ﴾ أي يعيبهم ويستهزئ بهم ويتنقصهم. والكتاب والسنة يمتلئان بالأدلة علىٰ ذلك .. ويكفينا من ذلك هدي النبي ﷺ بمكة، وكيف كان يسفه آلهة قريش ويظهر البراءة منها والكفر بها حتىٰ كانوا يلقبونه بالصابئ.

وإن شئت أن تتأكد من ذلك وتتيقنه فارجع وتدبر القرآن المكي، الذي ما كانت تتنزل علىٰ النبي ﷺ منه بضع آيات حتىٰ تضرب بها أكباد المطي شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، وتتناقلها الألسنة في الأسواق والمجالس والنوادي .. وكانت هذه الآيات

تخاطب العرب بلغتهم العربية المفهومة . . بكل وضوح وجلاء تسفه آلهتهم وعلىٰ رأسها اللات والعزىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ، أعظم الآلهة عند القوم في ذلك الزمان، وتعلن البراءة منها وعدم الالتقاء معها أو الرضىٰ بها وما كان النبي ﷺ ليكتم شيئًا من ذلك . . إن هو إلا نذير.

فالذين يصدّرون أنفسهم للدعوة في هذا الزمان بحاجة إلىٰ تدبر هذا الأمر جيدًا ومحاسبة أنفسهم عليه كثيرًا، لأن دعوة تسعىٰ لنصرة دين الله ثم تلقي بهذا الأصل الأصيل وراءها ظهريًا لا يمكن أن تكون علىٰ منهج الأنبياء والمرسلين . . وها نحن نعايش في هذا الزمان انتشار شرك التحاكم إلىٰ الدساتير والقوانين الوضعية بين ظهرانينا، فيلزم هذه الدعوات ولا بد، التأسي بنبيها في اتباع ملة إبراهيم بتسفيه قدر هذه الدساتير وتلك القوانين وذكر نقائصها للناس وإبداء الكفر بها وإظهار وإعلان العداوة لها ودعوة الناس إلىٰ ذلك . . وبيان تلبيس الحكومات وضحكها علىٰ الناس . . وإلا فمتىٰ يظهر الحق، وكيف يعرف الناس دينهم حق المعرفة، ويميزون الحق من الباطل والعدو من الولي . . ولعل الغالبية يتعذرون بمصلحة الدعوة وبالفتنة . . وأي فتنة أعظم من كتمان التوحيد والتلبيس علىٰ الناس في دينهم، وأي مصلحة أعظم من إقامة ملة إبراهيم وإظهار الموالاة لدين الله والمعاداة للطواغيت التي تعبد ويدان لها من دون الله، وإذا لم يبتل المسلمون لأجل ذلك وإذا لم تقدم التضحيات في سبيله فلأي

شيء إذًا يكون البلاء . . فالكفر بالطواغيت كلها واجب علىٰ كل مسلم بشطر شهادة الإسلام . . وإعلان ذلك وإبداؤه وإظهاره واجب عظيم أيضًا لا بد وأن تصدع به جماعات المسلمين أو طائفة من كل جماعة منهم علىٰ الأقل، حتىٰ يشتهر وينتشر ويكون هو الشعار والصفة المميزة لهذه الدعوات كما كان حال النبي ﷺ، ليس في زمن التمكين وحسب بل وفي زمن الاستضعاف، حيث كان يشار إليه بالأصابع ويحذر منه ويوصف بعداوة الآلهة وغير ذلك . . وإننا لنعجب أي دعوة هذه التي يتباكىٰ أولئك الدعاة علىٰ مصلحتها وأي دين هذا الذي يريدون إقامته وإظهاره وأكثرهم يلهج بمدح القانون الوضعي - ويا للمصيبة - وبعضهم يثني عليه ويشهد بنزاهته وكثير منهم يقسم علىٰ احترامه والالتزام ببنوده وحدوده، عكسًا للقضية والطريق فبدلًا من إظهار وإبداء العداوة له والكفر به، يظهرون الولاء له والرضىٰ عنه، فهل مثل هؤلاء ينشرون توحيدًا أو يقيمون دينًا؟! إلىٰ الله المشتكىٰ . .

وإبداء هذا الأمر وإظهاره ليس له علاقة بتكفير الحاكم أو إصراره علىٰ الحكم بغير شريعة الرحمن . . لأنه متعلق بالدستور أو التشريع أو القانون القائم المحترم المطبق المبجل المحكم بين الناس.

- **القضية الثانية**: وهي البراءة من المشركين والكفر بهم وإظهار العداوة والبغضاء لهم هم أنفسهم.

* يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في إغاثة اللهفان: (وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله وعادىٰ المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلىٰ الله) أهـ. وهذه القضية -أي البراءة من المشركين- أهم من الأولىٰ أعني (البراءة من معبوداتهم).

* يقول الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله تعالىٰ في «سبيل النجاة والفكاك» عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المُمتَحنَة: ٤]: (وهاهنا نكتة بديعة وهي أن الله تعالىٰ قدّم البراءة من المشركين العابدين غير الله، علىٰ البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله لأن الأول أهم من الثاني، فإنه إن تبرأ من الأوثان ولم يتبرأ ممن عبدها لا يكون آتيًا بالواجب عليه. وأما إذا تبرأ من المشركين فإن هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم، وكذا قوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مَريَم: ٤٨] الآية. فقدّم اعتزالهم علىٰ اعتزال ما يدعون من دون الله. وكذا قوله: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مَريَم: ٤٩]، وقوله: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكَهف: ١٦]، فعليك بهذه النكتة فإنها تفتح لك بابًا إلىٰ عداوة أعداء الله. فكم من إنسان لا يقع منه الشرك

ولكنه لا يعادي أهله فلا يكون مسلمًا بذلك إذ ترك دين جميع المرسلين)[١] أهـ.

* ويقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن في رسالة له في الدرر السنية: (والمرء قد ينجو من الشرك ويحب التوحيد، ولكنه يأتيه الخلل من جهة عدم البراءة من أهل الشرك وترك موالاة أهل التوحيد ونصرتهم. فيكون متبعًا لهواه داخلًا من الشرك في شعب تهدم دينه وما بناه، تاركًا من التوحيد أصولًا وشعبًا لا يستقيم معها إيمانه الذي ارتضاه فلا يحب ولا يبغض لله ولا يعادي ولا يوالي لجلال من أنشأه وسوّاه، وكل هذا يؤخذ من شهادة أن لا إله إلا الله) أهـ من جزء الجهاد ص٦٨١.

* ويقول أيضًا في رسالة أخرىٰ له من الكتاب نفسه ص٨٤٢: (وأفضل القرب إلىٰ الله مقت أعدائه المشركين وبغضهم وعداوتهم وجهادهم وبهذا ينجو العبد من توليهم من دون المؤمنين، وإن لم يفعل ذلك فله من ولايتهم بحسب ما أخل به وتركه من ذلك، فالحذر مما يهدم الإسلام ويقلع أساسه) أهـ.

---

(١) مقصود الشيخ هنا والله أعلم أن لا يعاديهم ولا يبغضهم جملة وتفصيلًا حتىٰ في قلبه، بل يضمر لهم بدلًا من ذلك الود والمحبة فهذا لا شك قد نقض إيمانه وترك دين جميع المرسلين، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

* ويقول سليمان بن سحمان:

فمن لم يعاد المشركين ولم يوال ولم يبغض ولم يتجنب
فليس علىٰ منهاج سنة أحمد وليس علىٰ نهج قويم معرب

* وقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ: (لا بد للمسلم من التصريح بأنه من هذه الطائفة المؤمنة، حتىٰ يقويها وتقوىٰ به ويفزع الطواغيت، الذين لا يبلغون الغاية في العداوة حتىٰ يصرح لهم أنه من هذه الطائفة المحاربة لهم). أهـ من مجموعة التوحيد.

* وسئل الشيخ حسين والشيخ عبد الله ابنا الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن رجل دخل هذا الدين وأحبه وأحب أهله، ولكن لا يعادي المشركين أو عاداهم ولم يكفرهم؟ فكان مما أجابا به: (من قال لا أعادي المشركين، أو عاداهم ولم يكفرهم؟ فهو غير مسلم؟[1] وهو ممن قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ

(١) قوله ﷺ (عمن لم يعاد المشركين أو لم يكفرهم بأنه غير مسلم) هذه من المواضع التي يفرح بها الغلاة وهي ليست قرآنا يحتج به ومع ذلك فقد تكرر التنبيه علىٰ مثل هذا بأنه إذا كان المقصود بنفي العداوة للمشركين زوالها بالكلية وانقلابها إلىٰ محبة وموالاة لهم فالكلام صحيح وأما من فهم أن الاسلام ينتفي عنه بعدم إظهار العداوة فهذا خطأ، وكذلك عدم تكفير المشركين فقد أوسعنا الكلام عليها في الثلاثينية عند الكلام علىٰ قاعدة من لم يكفر الكافر فراجعها.

وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النِّسَاءِ: ١٥١]. أهـ. من الدرر(١).

* يقول سليمان بن سحمان:

فعاد الذي عادىٰ لدين محمد
ووال الذي والاه من كل مهتد
وأحبب لحب الله من كان مؤمنًا
وأبغض لبغض الله أهل التمرد
وما الدين إلا الحب والبغض والولا
كذاك البرا من كل غاو ومعتد

* ويقول أيضًا:

نعم لو صدقت الله فيما زعمته
لعاديت من بالله ويحك يكفر
وواليت أهل الحق سرًا وجهرة
ولما تهاجيهم وللكفر تنصر
فما كل من قد قال ما قلت مسلم
ولكن بأشراط هنالك تذكر

(١) انظر الهامش السابق.

مباينة الكفار في كل موطن
بذا جاءنا النص الصحيح المقرر
وتكفيرهم جهرًا وتسفيه رأيهم
وتضليلهم فيما أتوه وأظهروا
وتصدع بالتوحيد بين ظهورهم
وتدعوهموا سرًا لذاك وتجهر
فهذا هو الدين الحنيفي والهدىٰ
وملة إبراهيم لو كنت تشعر

بالطبع لا نقول إن إظهار مثل هذه البراءة والعداوة شاملة حتىٰ للمؤلفة قلوبهم، أو من يظهرون التقبل ولا يظهرون العداوة لدين الله، وإن كان الواجب وجودها في القلب لكل مشرك، حتىٰ يتطهر من شركه، ولكن الكلام علىٰ الإظهار والإعلان والمجاهرة والإبداء، فهؤلاء وحتىٰ المتجبرين والظالمين يُدعون إلىٰ طاعة الله بالحكمة والموعظة الحسنة ابتداء فإن استجابوا فهم إخواننا نحبهم بقدر طاعتهم ولهم ما لنا، وعليهم ما علينا. وإن أبوا مع وضوح الحجة واستكبروا وأصروا علىٰ ما هم عليه من الباطل والشرك ووقفوا في الصف المعادي لدين الله، فلا مجاملة معهم ولا مداهنة .. بل يجب إظهار وإبداء البراءة منهم عند ذلك .. وينبغي التفريق هنا بين الحرص علىٰ هداية المشركين والكفار وكسب أنصار للدين واللين في البلاغ والحكمة والموعظة الحسنة

وبين قضية الحب والبغض والموالاة والمعاداة في دين الله، لأن كثيرًا من الناس يخلط في ذلك فتستشكل عليهم كثير من النصوص مثل: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون» وما إلىٰ ذلك.

وقد تبرأ إبراهيم من أقرب الناس إليه، لما تبين له أنه مصرّ علىٰ شركه وكفره، قال تعالىٰ عنه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] .. ذلك بعد أن دعاه بالحكمة والموعظة الحسنة، فتجده يخاطبه بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [مريم: ٤٣] .. ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥] .. وهكذا موسىٰ مع فرعون .. بعد أن أرسله الله إليه وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] .. فقد بدأ معه بالقول اللين استجابة لأمر الله فقال: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ وأراه الآيات والبينات .. فلما أظهر فرعون التكذيب والعناد والإصرار علىٰ الباطل، قال له موسىٰ كما أخبر تعالىٰ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. بل ويدعو عليهم قائلًا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، فالذين يدندنون علىٰ نصوص الرفق واللين والتيسير علىٰ إطلاقها ويحملونها علىٰ غير محملها، ويضعونها في غير موضعها، ينبغي لهم أن يقفوا عند هذه

القضية طويلًا، ويتدبروها ويفهموها فهمًا جيدًا . . إن كانوا مخلصين . .

وليعلموا بعد ذلك جيدًا، أن من كُلم بشتىٰ الأساليب وأغلبها من أساليب الرفق واللين، سواء عن طريق الرسائل والكتب أو مباشرة ومواجهة عن طريق كثير من الدعاة، وبُيِّن له أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر . . وعلم بأنه لا يجوز له الحكم بغير شريعة الله . . ولكنه برغم ذلك يصر ويستكبر . . وإن كان في ظاهره في كثير من المناسبات يضحك علىٰ أذقان المساكين بوعوده الفارغة الكاذبة وكلماته المعسولة وحججه الواهية الزائفة . . ولسان حاله يكذب مقاله. وذلك بإقراره وسكوته عن ازدياد الكفر والفساد في البلاد والعباد يومًا بعد يوم . . وتشديده علىٰ الدعاة والمؤمنين، وتضييقه علىٰ المصلحين ورصده لهم بأجهزة مخابراته وشرطته . . وتوسيعه في الوقت ذاته علىٰ كل محارب لدين الله، وتسهيل وسائل الفساد والإفساد لأعداء الله بل وتسخير وسائل الإعلام لهم ولفسادهم ولإلحادهم . . وإصدار القوانين واللوائح التي تعاقب كل من تهجم علىٰ ياسقه العصري الوضعي الشركي أو أعلن الكفر والبراءة منه أو تنقصه أو بيّن باطله للناس . . وإصراره علىٰ إبقائه الحاكم الذي يفصل بين العباد في دمائهم وأموالهم وفروجهم، رغم ما هو مشحون به من الكفر البواح . . وعدم استسلامه لشرع الله وتحكيمه مع علمه بوجوب ذلك ومطالبة المصلحين به . . فمثل هذا لا تجوز مداهنته أو مجاملته أو تبجيله بألقابه

أو تهنئته بالأعياد والمناسبات أو إظهار الولاء له أو لحكومته . . بل لا يقال له إلا كما قال إبراهيم والذين معه لقومهم: إنا برءاء منك ومن دستورك وقوانينك الشركية وحكومتك الكفرية . . كفرنا بكم . . وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا حتىٰ ترجعوا إلىٰ الله وتستسلموا وتنقادوا لشرعه وحده . . ويدخل في ذلك أيضًا التحذير من موالاتهم ومن الدخول في طاعتهم والمشي في ركابهم وتكثير سوادهم عن طريق الوظائف التي تعينهم علىٰ باطلهم أو تثبت حكوماتهم وتحفظ أو تنفذ قوانينهم الباطلة كالجيش والشرطة والمباحث وغير ذلك . .

ولقد كانت مواقف السلف مع أمراء زمانهم - الذين لا تصح بحال من الأحوال مقارنتهم بهذا الطاغوت وأمثاله - مواقف حازمة واضحة نظيفة . . وأين مواقف كثير من أصحاب الدعوات في زماننا هذا منها . . مع شهرة هؤلاء وتصفيق أتباعهم لهم . . ومع أن أولئك السلف ما تخرجوا من كليات العلوم السياسية أو الحقوق، ومع ذلك كانوا يفرون من السلطان وأبوابه والسلطان يطلبهم ويغريهم بالأموال وغيرها . . أما المنتسبون إليهم اليوم ممن لعب الشيطان بدينهم فيطلبون صلاح دنياهم بفساد دينهم؛ فيأتون ويطلبون أبواب السلطان والسلطان يذلهم ويعرض عنهم . . وكان السلف رضوان الله عليهم ينهون عن الدخول علىٰ أمراء الجور، حتىٰ لمن أراد أمرهم بالمعروف أو نهيهم عن المنكر، مخافة أن يفتتن بهم فيداهنهم أو يجاملهم لإكرامهم أو يسكت عن

بعض باطلهم ويقره، ويرون أن البعد عنهم واعتزالهم خير براءة وإنكار لأحوالهم .. واستمع إلىٰ سفيان الثوري وهو يكتب إلىٰ عباد بن عباد فيقول في كتابه: (إياك والأمراء أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء من الأشياء، وإياك ويقال لك لتشفع وتدرأ عن مظلوم أو ترد مظلمة فإن ذلك خديعة إبليس .. وإنما اتخذها فجار القراء سلمًا ..) اهـ. من سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٨٦) وجامع بيان العلم وفضله (١/ ١٧٩) فانظر إلىٰ سفيان رحمه الله تعالىٰ وهو يسمي ما يصفه دعاة اليوم بمصلحة الدعوة: «خديعة إبليس» .. ولم يقل لصاحبه كما يفعل كثير من دعاة هذا الزمان الذين يضيعون أعمارهم في طلب مصلحة الدعوة ونصر الدين عند أعدائه ومحاربيه: (لا يا أخي!! اثبت وجودك وتقرب إليهم لعلك تحصل علىٰ منصب أو كرسي في مجلس الوزراء أو مجلس الأمة، ولعلك تقلل من الظلم أو تنفع إخوانك. ولا تترك هذا المنصب للعصاة والفجرة ليستغلوه .. و ... و..) بل وصف ذلك بأنه سلم للدنيا عند فجار القراء وإذا كان هذا في زمانه فكيف في زماننا. نسأل الله العافية، ونعوذ بالله من شر أهل هذا الزمان وشر تلبيساتهم .. ورحم الله من قال:

قوم تراهم مهطعين لمجلس
فيه الشقاء وكل كفر دان
بل فيه قانون النصارىٰ حاكمًا
من دون نص جاء في القرآن

تبًّا لكم من معشر قد أشربوا
حب الخلاف ورشوة السلطان

* وهذا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب يكرر كثيرًا ما جاء عن سفيان الثوري من قوله: (من جالس صاحب بدعة لم يسلم من إحدىٰ ثلاث:

- إما أن يكون فتنة لغيره بالجلوس معه، وقد ورد في الحديث: (من سن في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) رواه مسلم.

- أن يقع في قلبه شيء من الاستحسان، فيزل به فيدخله الله النار بسبب ذلك.

- أن يقول: (والله ما أبالي بما تكلموا وإني واثق من نفسي فمن أمن الله علىٰ دينه طرفة عين سلبه الله إياه) اهـ. من الدرر السنية وغيرها.

فإذا كانت هذه أقوالهم في مجالسة أهل البدع وإن كانت بدعهم غير مكفرة كما هو معلوم في مواضع كثيرة من كلامهم .. فكيف بمجالسة المرتدين من عبيد القانون وغيرهم من المشركين .. وتأمل قوله في الثالثة: (إني واثق من نفسي) وكم

سقط بسببها وبمثلها كثير من دعاة زماننا، فالسلامة .. السلامة ..

وعلىٰ كل حال فقد أبطل الله تعالىٰ جميع هذه الطرق المعوجة التي يحلم أصحابها أن وراءها نصرًا للدين .. فبين جل وعلا أن لا نصر يرتجىٰ ولا مصلحة دينية أبدًا في التقرب إلىٰ الظلمة .. فقال سبحانه في سورة هود التي شيَّبَت النبي ﷺ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هُود: ١١٣]، فليس وراء هذه المداهنات والسبل الملتوية نصرًا لدين الله ولا مصلحة وإن توهم ذلك المتوهمون .. اللهم إلا أن يكون مسيس النار عندهم مصلحة للدعوة .. فأفق من نومك، ولا تغتر بكل ناعق وزاعق ..

* وقد قال المفسرون في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ الركون هو الميل اليسير.

* وقال أبو العالية: لا تميلوا إليهم كل الميل في المحبة ولين الكلام.

* وقال سفيان الثوري: من لاق لهم دواة أو برىٰ لهم قلمًا أو ناولهم قرطاسًا دخل في ذلك.

* قال الشيخ حمد بن عتيق: فتوعد سبحانه بمسيس النار من ركن إلىٰ أعدائه ولو بلين الكلام.

* وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن -وهو من أئمة الدعوة النجدية أيضًا- بعد أن ذكر بعض أقوال المفسرين السابقة في معنىٰ الركون: (وذلك لأن ذنب الشرك أعظم ذنب عصي الله به علىٰ اختلاف رتبه، فكيف إذا انضاف إليه ما هو أفحش، من الاستهزاء بآيات الله وعزل أحكامه وأوامره وتسمية ما ضاده وخالفه بالعدالة، والله يعلم ورسوله والمؤمنون أنها الكفر والجهل والضلالة، ومن له أدنىٰ أنفة وفي قلبه نصيب من الحياة يغار لله ورسوله وكتابه ودينه ويشتد إنكاره وبراءته في كل محفل، وكل مجلس، وهذا من الجهاد الذي لا يحصل جهاد العدو إلا به، فاغتنم إظهار دين الله والمذاكرة به وذم ما خالفه والبراءة منه ومن أهله، وتأمل الوسائل المفضية إلىٰ هذه المفسدة الكبرىٰ وتأمل نصوص الشارع في قطع الوسائل والذرائع، وأكثر الناس ولو تبرأ من هذا ومن أهله، فهو جند لمن تولاهم وأنس بهم وأقام بحماهم والله المستعان) اهـ من الدرر، جزء الجهاد ص١٦١. فلله دره كأنّه يتكلم عن زماننا.

* يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (فالله الله يا إخواني تمسكوا بأصل دينكم، وأوّله وأُسّه ورأسه، شهادة أن لا إله إلا الله، واعرفوا معناها وأحبوها، وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم، ولو كانوا بعيدين منكم نسبًا واكفروا بالطواغيت وعادوهم وأبغضوهم، وأبغضوا من أحبهم. أو جادل عنهم أو لم يكفرهم، أو قال ما عليّ منهم، أو قال ما كلفني الله بهم، فقد

كذب هذا علىٰ الله وافترىٰ إثمًا مبينًا، فقد كلّف الله كل مسلم ببغض الكفار، وافترض عليه عداوتهم، وتكفيرهم والبراءة منهم، ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم، فالله الله تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئًا) أهـ. من مجموعة التوحيد.

*تنبيه: واعلم بعد ذلك كله، أن لا تنافي بين القيام بملة إبراهيم والأخذ بأسباب السرية والكتمان في العمل الجاد لنصرة الدين . . وكلامنا هذا كله لا يرد هذا السبب العظيم الذي كان يأخذ به النبي ﷺ والأدلة عليه من سيرته أكثر من أن تحصىٰ . . ولكن الذي يقال: إن هذه السرية يجب أن توضع في مكانها الحقيقي . . وهي سرية التخطيط والإعداد، اما ملة إبراهيم والكفر بالطواغيت ومناهجهم وآلهتهم الباطلة فهذه لا تدخل في السرية بل من علنية الدعوة فينبغي إعلانها منذ أول الطريق كما بينا سابقًا، وعلىٰ ذلك يُحمل قول النبي ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق) . . الحديث. رواه مسلم وغيره . . أما إخفاؤها وكتمها مداهنة للطواغيت، وتغلغلًا في صفوفهم وارتقاء في مناصبهم . . فليس من هدي نبينا محمد ﷺ . . بل هو من هدي وسرية أصحاب التنظيمات الأرضية الذين يجب أن يقال لهم أيضًا: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ . . وخلاصة الأمر أنها: سرية في الإعداد والتخطيط علنية في الدعوة والتبليغ.

* وإنما قلنا ذلك لأن كثيرًا من الناس سواء من المرجفين أو ممن لم يفهموا دعوة الأنبياء حق الفهم، يقولون عن جهل منهم إن هذه الطريق التي تدعون إليها تكشفنا وتفضح تخطيطاتنا وتعجّل بالقضاء علىٰ الدعوة وثمراتها . .

فيقال لهم أولًا : إن هذه الثمرات المزعومة لن تينع ولن يبدو صلاحها حتىٰ يكون الغراس علىٰ منهاج النبوة، وواقع هذه الدعوات العصرية أكبر دليل وشاهد علىٰ ذلك بعد الأدلة الشرعية المتقدمة من ملّة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . . حيث إن ما نعانيه اليوم من جهل أبناء المسلمين والتباس الحق عليهم بالباطل، وعدم وضوح مواقف الولاء والبراء، إنما هو من سكوت وكتمان العلماء والدعاة لهذا الحق ولو أنهم صرحوا وصدعوا به وابتلوا كما هو حال الأنبياء لظهر وبان للناس جميعًا، ولتمحص وتميز بذلك أهل الحق من أهل الباطل ولبلغت رسالات الله ولزال التلبيس الحاصل علىٰ الناس خاصة في الأمور المهمة والخطيرة في هذا الزمان، وكما قيل: (إذا تكلم العالم تقية والجاهل بجهله فمتىٰ يظهر الحق). وإذا لم يظهر دين الله وتوحيده العملي والاعتقادي للناس . . فأي ثمار تلك التي ينتظرها ويرجوها هؤلاء الدعاة.؟

أهي (الدولة الإسلامية)؟ إن إظهار توحيد الله الحق للناس وإخراجهم من ظلمات الشرك إلىٰ أنوار التوحيد هي الغاية العظمىٰ والمقصود الأهم وإن نكّل بالدعوات وإن ابتلي الدعاة . .

وهل يظهر الدين إلا بالمدافعة والبلاء: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥١]، فبذلك يكون إعلاء دين الله وإنقاذ الناس وإخراجهم من الشرك باختلاف صوره، وهذه هي الغاية التي يكون من أجلها البلاء وتنحر علىٰ عتباتها التضحيات . . وما الدولة الإسلامية أصلًا إلا وسيلة من وسائل هذه الغاية العظمىٰ . . وفي قصة أصحاب الأخدود عبرة لأولي الألباب فإن ذلك الغلام الداعية الصادق ما أقام دولة ولا صولة ولكنّه أظهر توحيد الله أيما إظهار، ونصر الدين الحق نصرًا مؤزرًا ونال الشهادة، وما قيمة الحياة بعد ذلك، وما وزن القتل والحرق والتعذيب إذا فاز الداعية بالفوز الأكبر . . كانت الدولة أم لم تكن . . وإن حُرِّق المؤمنين وإن خُدَّت لهم الأخاديد فإنهم منتصرون لأن كلمة الله هي الظاهرة والعليا . . أضف إلىٰ ذلك أن الشهادة طريقهم والجنة نزلهم . . فأنعم بذلك أنعم . .

* وبهذا تعلم أن قول أولئك الجهّال: (إن هذه الطريق تقضي علىٰ الدعوة وتعجل ببوار ثمراتها) جهل وإرجاف، لأن هذه الدعوة هي دين الله الذي وعد الله ﷻ بأن يظهره علىٰ الدين كله ولو كره المشركون، وذلك كائن لا ريب فيه، ونصرة دين الله وإعلاؤه ليست متعلقة بأشخاص هؤلاء المرجفين، تذهب بذهابهم أو تهلك بهلاكهم أو توليهم . . قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [مُحَمَّد: ٣٨]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المَائدة: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤]، وها هي دعوات الرسل والأنبياء وأتباعهم خير شاهد في شعاب الزمان .. وقد كانوا أشد الناس بلاءً وامتحانًا وما أثّر ذلك البلاء في نور دعواتهم، بل ما زادها إلا ظهورًا واشتهارًا وتغلغلًا في قلوب الناس وبين صفوفهم، وها هي إلىٰ اليوم ما زالت نورًا يهتدي به السائرون في طريق الدعوة إلىٰ الله، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه.

* ثم ومع ذلك كلّه فلا بد من معرفة قضية أخيرة هنا .. وهي أن هذا الصدع بإظهار العداوة والبراءة من الكفّار المعاندين وإبداء الكفر بمعبوداتهم وباطلهم المتنوع في كل زمان، وإن كان هو الأصل في حال الداعية المسلم .. وهو صفة الأنبياء وطريق دعوتهم المستقيم الواضح .. ولن تفلح هذه الدعوات ولن يصلح مرادها وحالها ولن يظهر دين الله ولن يعرف الناس الحق إلا بالتزام ذلك واتباعه، مع ذلك يقال بأنّه إذا صدعت به طائفة من أهل الحق سقط عن الآخرين والمستضعفين منهم من باب أولىٰ، وذلكم الصدع به، أما هو بحد ذاته فإنّه واجب علىٰ كل مسلم في كل زمان ومكان لأنّه كما أسلفنا من لا إله إلا الله التي لا يصح إسلام امرئٍ إلا بها، أما أن يهمل ويلغىٰ الصدع به كلية من حساب الدعوات مع أنّه أصل أصيل في دعوات الأنبياء، فأمر

غريب محدث ليس من دين الإسلام في شيء، بل دخل علىٰ هؤلاء الدعاة الذين يدعون بغير هدي النبي ﷺ بتقليدهم ومحاكاتهم للأحزاب الأرضية وطرائقها التي تدين بالتقية في كل أحوالها ولا تبالي بالمداهنة أو تتحرج من النفاق . .

* واستثناؤنا هذا غير نابع من الهوىٰ والتكتيكات العقلية بل من النصوص الشرعية النقلية الكثيرة . . والمتأمل لسيرة النبي ﷺ في عهد الاستضعاف يتجلىٰ له ذلك واضحًا . . وانظر علىٰ سبيل المثال لا الحصر . . قصة إسلام عمرو بن عبسة السلمي في صحيح مسلم ومحل الشاهد منها قوله، قلت: (إني متبعك). قال: (إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ألا ترىٰ حالي وحال الناس ولكن ارجع إلىٰ أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني . . الحديث) قال النووي: (معناه قلت له إني متبعك علىٰ إظهار الإسلام هنا وإقامتي معك. فقال: لا تستطيع ذلك لضعف شوكة المسلمين ونخاف عليك من أذىٰ كفار قريش ولكن قد حصل أجرك فابق علىٰ إسلامك وارجع إلىٰ قومك واستمر علىٰ الإسلام في موضعك حتىٰ تعلمني ظهرت فأتني . . .) أهـ. فهذا واحد قد أذن له النبي ﷺ في عدم إعلان وإظهار الدين . . لأن دين الله ودعوة النبي ﷺ كانت مشتهرة معروفة ظاهرة في ذلك الوقت ويدلك علىٰ ذلك قوله ﷺ في الحديث نفسه: (ألا ترىٰ حالي وحال الناس).

وقصة إسلام أبي ذر في البخاري أيضًا، ومحل الشاهد منها قوله ﷺ له: (يا أبا ذر أكتم هذا الأمر وارجع إلىٰ بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل . . .) الحديث ومع هذا فقد صدع به أبو ذر بين ظهراني الكفّار متابعة منه لهدي النبي ﷺ وطريقته في ذلك، ومع أنهم ضربوه ليموت كما جاء في الحديث، ومع تكراره لذلك الصدع، فإن النبي ﷺ لم ينكر عليه فعله ذلك، ولا خذّله ولا قال له كما يقول دعاة زماننا إنّك بفعلك هذا ستبلبل الدعوة وستثير فتنة، وتضر مصلحة الدعوة أو أخرت الدعوة مائة سنة . . حاشاه من أن يقول مثل ذلك . . فهو قدوة الناس كافة وأسوتهم إلىٰ يوم القيامة في هذا الطريق . . فاستخفاء بعض المستضعفين من اتباع الدعوة شيء وظهور الدين وإعلانه شيء آخر، ودعوة النبي ﷺ كانت ظاهرة معروفة مشتهرة، والكل يعرف أن أصلها وقطب رحاها الكفر بطواغيت ذلك الزمان وتوحيد العبادة بكل أنواعها لله ﷻ . . حتىٰ أنّه ليحذر منها وتحارب بشتىٰ الوسائل . . وما احتاج أتباعه المستضعفين أصلًا للاستخفاء والهجرة وما حصل لهم من الأذىٰ والاستضعاف ما حصل إلا بسبب وضوح الدعوة واشتهار أصلها، ولو كان عندهم من المداهنة قليلًا مما عند أهل زماننا لما حصل لهم ذلك كله.

* وبمعرفتك لهذه النكتة تتضح لك فائدة أخرىٰ مهمة: وهي جواز مخادعة الكفّار وتخفي بعض المسلمين بين صفوفهم أثناء المواجهة والقتال إذا ما كان الدين ظاهرًا وأصل الدعوة

مشتهرًا . . ففي هذه الأحوال يصح الاستشهاد بحادثة قتل كعب بن الأشرف وأمثالها . . أما أن يضيع كثير من الدعاة أعمارهم في جيوش الطواغيت موالين مداهنين يحيون ويموتون وهم في خدمتهم وخدمة مؤسساتهم الخبيثة بحجة الدعوة ونصر الدين . . فيلبسوا علىٰ الناس دينهم ويقبروا التوحيد . . فهذه السبل في المغرب ودعوة النبي ﷺ وهديه عنها في أقاصي المشرق.

سـارت مـشـرقّـةً وسـرت مـغـرّبًـا

شـتّـان بـيـن مـشـرِّقٍ ومـغـرِّبِ

فملة إبراهيم إذًا هي طريق الدعوة الصحيحة . . التي فيها مفارقة الأحباب وقطع الرقاب . . أما غيرها من الطرائق والمناهج الملتوية والسبل المعوجة المنحرفة تلك التي يريد أصحابها إقامة دين الله دون أن يستغنوا عن المراكز والمناصب، ودون أن يغضبوا أصحاب السلطان . . أو يفقدوا القصور والأمان والسعادة في الأهل والبيوت والأوطان، فليست من ملة إبراهيم في شيء.

وإن ادعىٰ أصحاب هذه الدعوات أنهم علىٰ منهج السلف ودعوة الأنبياء والمرسلين . . فوالله لقد رأيناهم . . رأيناهم كيف يبشون في وجوه المنافقين والظالمين بل والكفّار المحادين لله ورسوله لا لدعوتهم ورجاء هدايتهم، بل يجالسونهم مداهنةً وإقرارًا لباطلهم ويصفقون لهم ويقومون لهم إكرامًا يبجلونهم ويدعونهم بألقابهم . . نحو: صاحب الجلالة والملك المعظم والرئيس

المؤمن وصاحب السمو بل وإمام المسلمين وأمير المؤمنين مع أنهم حرب علىٰ الإسلام والمسلمين(١) . . نعم والله لقد رأيناهم

---

(١) فائدة مهمة تفضح علماء الحكومات: اعلم عافانا الله وإياك من تلبيس الملبسين أن ما يفعله كثير من الجهال وإن لقبوا بالمشايخ وتمسّحوا بالسلفية من تلقيب كثير من طغاة هذا الزمان بلقب أمير المؤمنين أو إمام المسلمين . . إنما ينهجون بذلك نهج الخوارج والمعتزلة في عدم اعتبار شرط القرشية في الإمام . . راجع في ذلك صحيح البخاري: كتاب الأحكام (باب: الأمراء من قريش)، وغيره من كتب السنة والفقه والأحكام السلطانية فإنه أمر معروف لن تجد عناء في مراجعته . . ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح عن القاضي عياض قوله: اشتراط كون الإمام قرشيًا مذهب العلماء كافة وقد عدوها في مسائل الإجماع، ولم ينقل عن أحد من السلف فيه خلاف وكذلك من بعدهم في جميع الأمصار. قال: ولا اعتداد بقول الخوارج ومن وافقهم في المعتزلة» اهـ (٣١/ ٩١).

* ثم رأيت الشيخ عبد الله أبا بطين وهو من علماء الدعوة النجدية يرد علىٰ بعض المعارضين المنكرين لتلقيب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعبد العزيز بن محمد بن سعود بلقب الإمام وهما غير قرشيين . . يقول: (ومحمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ ما ادعىٰ إمامة الأمة، وإنما هو عالم دعا إلىٰ الهدىٰ وقاتل عليه ولم يلقب في حياته بالإمام ولا عبد العزيز بن محمد بن سعود ما كان أحد في حياته منهم يسمىٰ إمامًا، وإنما حدث تسمية من تولىٰ إمامًا بعد موتهما) أهـ. انظر الدرر جزء الجهاد ص٢٤٠، فانظر إلىٰ هذا العالم الرباني كيف يتبرأ من ذلك وينكره رغم أن المذكورين كانا من دعاة الهدىٰ، ولا يكابر مكابرة كثير من مشايخ الحكومات في هذا الزمان الذين يصرون علىٰ تسمية طواغيتهم بالإمام وأمير المؤمنين . . فبشراهم بأنهم علىٰ نهج الخوارج سائرون . . ذلك الوصف الذي طالما رموا به طلبة العلم ودعاة الحق الذين ينابذون طواغيتهم . . =

يغدو أحدهم ويروح . . يبيع دينه بأقل من جناح بعوضة . . يمسي مؤمنًا يدرس التوحيد وربما درّسه ويصبح يقسم علىٰ احترام الدستور بقوانينه الكفرية، ويشهد بنزاهة القانون الوضعي . . ويكثر سواد الظالمين ويلقاهم بوجه منبسط ولسان عذب . . مع أنّهم يمرون بآيات الله الليل والنهار تنهاهم عن الركون للظالمين أو طاعتهم والرضىٰ عن بعض باطلهم . . فهم يقرأون هذه الآيات، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هُود: ١١٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ . . . ﴾ الآية [النِّسَاء: ١٤٠].

* يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في معنىٰ قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، (الآية علىٰ ظاهرها وهو أن الرجل إذا سمع آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فجلس عند الكافرين المستهزئين من غير إكراه

= ورموهمُ بغيًا بما الرامي به
أولىٰ ليدفع عنه فعل الجاني
يرمي البريء بما جناه مباهتًا
ولذاك عند الغرّ يشتبهان

وهذا كله بالنسبة لشرط القرشية، فكيف إذا انضم إلىٰ ذلك انعدام العدالة والعلم والحكمة وغير ذلك من شروط الإمامة؟ وكيف إذا عُدم الإسلام والإيمان؟ كيف، كيف؟

ولا إنكار ولا قيام عنهم حتىٰ يخوضوا في حديث غيره فهو كافر مثلهم وإن لم يفعل فعلهم. .) اهـ من الدرر جزء الجهاد ص٧٩.

وقولـه ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

* قال الحسن البصري: لا يجوز له القعود معهم خاضوا أو لم يخوضوا لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

* يقول الشيخ سليمان بن عبد الله: (فإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق صلوات الله وسلامه عليه فكيف بغيره) اهـ. من الدرر جزء الجهاد ص٤٧.

ويقرأون قوله تعالىٰ واصفًا المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

ويزعمون أنهم علىٰ منهج السلف، والسلف كانوا يفرون من أبواب السلاطين ومناصبهم في عهد أرباب الشريعة والهدىٰ لا في عهود الجور والظلمات . . ووالله ما وضع السيف علىٰ رقابهم ولا علقوا من أرجلهم وما أجبروا علىٰ ذلك . . بل فعلوه مختارين ومنحوا عليه الأموال الطائلة . . والحصانات الدبلوماسية . .

فنعوذ بالله من هوىٰ النفوس وطمس البصائر . . وليتهم أعلنوها وقالوا: فعلناها حرصًا علىٰ الدنيا . . بل يقولون مصلحة الدعوة ونصر الدين . . فعلىٰ من تضحكون يا مساكين . . أعلينا نحن الضعفاء؟؟ فإننا وأمثالنا لا نملك لكم ضرًا ولا نفعًا . . . أم علىٰ جبار السموات والأرضين، الذي لا تخفىٰ عليه خافية، ويعلم سركم ونجواكم . .

ولقد سمعناهم يرمون من خالفهم أو أنكر عليهم ذلك، بضحالة الفكر وقلة الخبرة وأنهم ليس عندهم حكمة في الدعوة ولا صبر في اقتطاف الثمر أو بصيرة في الواقع والسنن الكونية . . وأنهم ينقصهم علم بالسياسة وعندهم قصور في التصورات . . وما درىٰ هؤلاء المساكين . . أنهم لا يرمون بذلك أشخاصًا محددين، وإنما يرمون بذلك دين جميع المرسلين وملة إبراهيم . . التي من أهم مهماتها إبداء البراءة من أعداء الله والكفر بهم وبطرائقهم المعوجة وإظهار العداوة والبغضاء لمناهجهم الكافرة . . وما دروا أن كلامهم ذلك يقتضي أن إبراهيم والذين معه لم يكن عندهم حكمة بالدعوة ولا دراية بالواقع . . وأنهم كانوا متطرفين متسرعين . . مع أن الله ﷻ قد زكاهم وأمرنا بالتأسي بهم . . فقال: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [المُمۡتَحنَة: ٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النِّسَاء: ١٢٥]، ونزه سبحانه إبراهيم من السفه فوصفه بالرشد فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ

رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]، ثم ذكر دعوته، بل بيّن سبحانه كما قدمنا أن ملة إبراهيم لا يرغب عنها إلا السفيه .. وأنىٰ للسفيه حكمة الدعوة ووضوح التصورات وصحة المنهج واستقامة الطريق المزعومة..؟؟



فصل

واعلم ثبّتنا الله وإيّاك علىٰ صراطه المستقيم أن هذه البراءة والعداوة التي تقتضي ملة إبراهيم إعلانها وإبداءها لأهل الكفر ومعبوداتهم، تكلف الكثير الكثير . .

فلا يظن ظان أن هذه الطريق مفروشة بالورد والرياحين أو محفوفة بالراحة والدعة، بل هي والله محفوفة بالمكاره والابتلاءات . . ولكن ختامها مسك وروح وريحان ورب غير غضبان . . ونحن لا نتمنىٰ البلاء لأنفسنا ولا للمسلمين، ولكن البلاء هو سنة الله ﷻ في هذه الطريق، ليميز به الخبيث من الطيب، فهي الطريق التي لا ترضي أصحاب الهوىٰ والسلطان لأنها مصادمة صريحة لواقعهم، وبراءة واضحة من معبوداتهم وشركياتهم . . أما غير هذه الطريق، فإنك تجد أصحابها في الغالب مترفين وللدنيا راكنين، لا يبدو عليهم أثر البلاء، لأن المرء إنما يبتلىٰ علىٰ قدر دينه، فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . . وأتباع ملة إبراهيم من أشد الناس بلاء لأنهم يتبعون منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله . . كما قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي . .) رواه البخاري . . فإن رأيت في زماننا من يزعم أنه يدعو لمثل ما كان

يدعو إليه النبي ﷺ وبمثل طريقته، ويدعي أنه علىٰ منهجه، ولا يعادىٰ من أهل الباطل والسلطان، بل هو مطمئن مرتاح بين ظهرانيهم .. فانظر في حاله .. إما أن يكون ضالًا عن الطريق .. لم يأت بمثل ما جاء به النبي ﷺ واتخذ سبلًا معوجة .. أو يكون كاذبًا في دعواه يتزيا بما ليس هو أهلًا أن يتزيّا به، إما لهوىٰ مطاع وإعجاب كل ذي رأي برأيه .. أو لدنيا يصيبها كأن يكون جاسوسًا وعينًا لأصحاب السلطان علىٰ أهل الدين .. وهذا الذي قاله ورقة للنبي ﷺ هو الذي كان مقررًا في نفوس الصحابة عندما بايعوا النبي ﷺ، حيث وقف أسعد بن زرارة يذكرهم ويقول: (رويدًا يا أهل يثرب، إن إخراجه اليوم مفارقة للعرب كافة، أو قتل خياركم وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون علىٰ ذلك، فخذوه وأجركم علىٰ الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله) رواه الإمام أحمد والبيهقي.

فتأمل هذا جيدًا فإننا في أمس الحاجة إليه في هذه الأيام التي تلبس فيها كل من هبّ ودبّ بلباس الدعوة والدعاة .. فارجع إلىٰ نفسك وزنها، واعرض عليها هذا الطريق وحاسبها علىٰ تقصيرها في ذلك، فإما أن تكون من قوم يصبرون علىٰ ذلك فخذها بحقها واسأل الله ﷻ أن يثبتك علىٰ ما يعقبها من بلاء .. أو إنك من قوم يخافون من أنفسهم خيفة ولا ترىٰ من نفسك

القدرة علىٰ القيام والصدع بهذه الملة فذر عنك التزيي بزي الدعاة وأغلق عليك بيتك وأقبل علىٰ خاصة أمرك ودع عنك أمر العامة .. أو اعتزل في شعب من الشعاب بغنيمات لك .. فإنه والله كما قال أسعد بن زرارة أعذر لك عند الله، نعم إن ذلك أعذر لك عند الله من أن تضحك علىٰ نفسك وعلىٰ الناس إذ لا تقوىٰ علىٰ القيام بملة إبراهيم فتتصدر للدعوة بطرق معوجة وتهتدي بغير هدي النبي ﷺ مجاملًا مداهنًا للطواغيت كاتمًا غير مظهر للعداوة لهم، ولا لباطلهم .. فوالله ثم والله، إن الذي يعتزل في شعب من الشعاب بغنيمات لهو خير وأهدىٰ سبيلًا منك ساعتئذ .. وصدق من قال:

الصمت أفضل من كلام مداهن
نجس السريرة طيب الكلمات
عرف الحقيقة ثم حاد إلىٰ الذي
يرضي ويعجب كل طاغ عات
لا تعجبوا يا قوم ممن أخصبوا
في هذه الأيام بالكلمات
وعلوا المنابر والصحائف سودوا
وتقدموا في سائر الحفلات
والله ما قالوا الحقيقة والهدىٰ
كلا ولا كشفوا عن الهلكات

أنىٰ يشير إلىٰ الحقيقة راغب
في وصل أهل الظلم والشهوات
أو طالبًا للجاه في عصرية
التقدير للمشهور بالنزوات
فنصيحتي يا قوم ألا تطمعوا
في عصرنا بتوفر الرغبات
عيشوا لدين الله لا لحضارة
محفوفة بالريب والشبهات

ولقد رأيناهم كثيرًا يسخرون ممن تبينت لهم انحرافاتهم وسبلهم المعوجة، فاعرضوا عنهم وعن دعواتهم تلك التي علىٰ غير منهاج النبوة . . رأيناهم يسخرون منهم لاعتزالهم . . ويلمزونهم بالقعود والركون إلىٰ الدنيا والتقصير في الدعوة إلىٰ الله . . . وإذا كان الأمر كذلك، فأية دعوة هذه التي قصر فيها هؤلاء؟ دعوتكم هذه التي تلجون بها الجيش والشرطة، ومجالس الأمة والبرلمانات الشركية وغير ذلك من الوظائف التي تكثر سواد الظالمين، بحجة مصلحة الدعوة فلا تظهرون دينكم الحق وتدعون فيها بغير هدي النبي ﷺ . . . أم أنهم قصروا في الدعوة الحقّة التي قصر فيها الفريقان وهي (ملة إبراهيم)، ويحتجون بقول النبي ﷺ فيما رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم أفضل من المؤمن الذي

لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم» ونحن نقول إن هذا الحديث في الشرق وأنتم عنه في الغرب، حيث إن المخالطة يجب أن تكون علىٰ هدي النبي ﷺ وليس تبعًا لآرائكم وأهوائكم وأساليب دعوتكم البدعية . . فإن كانت كذلك أي علىٰ هديه ﷺ حصل الأذىٰ والأجر معًا . . وإلا فأي أجر هذا الذي ينتظره من لا يدعو بهدي النبي ﷺ وقد أهمل شرطًا عظيمًا من شروط قبول العمل وهو (الاتباع)، وأي أذىٰ ذلك الذي سيلاقيه من لا يظهر العداوة لأولياء الشيطان وأنصار الكفر والطغيان، ولا يعلن البراءة من شركياتهم وطرائقهم المعوجة . . بل يجالسهم ويقر باطلهم ويبش في وجوههم، ولا يتمعر أو يغضب لله طرفة عين إذا انتهكوا حرمات الله، بحجة اللين والحكمة والموعظة الحسنة، وعدم تنفير الناس عن الدين، ومصلحة الدعوة وغير ذلك، ويهدم الدين عروة عروة بمعاول لينهم وحكمتهم البدعية.

يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن في رسالة له في الدرر السنية وهو يتكلم عن الصدع بالدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (وترك ذلك علىٰ سبيل المداهنة والمعاشرة ونحو ذلك مما يفعله بعض الجاهلين أعظم ضررًا وأكبر إثمًا من تركه لمجرد الجهالة فإن هذا الصنف رأوا أن نيل المعيشة لا يحصل إلا بذلك فخالفوا الرسل وأتباعهم وخرجوا عن سبيلهم ومنهاجهم، لأنهم يرون العقل إرضاء الناس علىٰ طبقاتهم ويسالمونهم ويستجلبون مودتهم ومحبتهم، وهذا مع أنه لا سبيل

إليه فهو إيثار للحظوظ النفسانية والدعة ومسالمة الناس وترك المعاداة في الله وتحمل الأذىٰ في ذاته وهذا في الحقيقة هو الهلكة في الآجلة، فما ذاق طعم الإيمان من لم يوال في الله ويعاد فيه، والعقل كل العقل ما أوصل إلىٰ رضىٰ الله ورسوله، وهذا إنما يحصل بمراغمة أعداء الله وإيثار مرضاته، والغضب إذا انتهكت محارمه. والغضب ينشأ من حياة القلب وغيرته وتعظيمه وإذا عدم الحياة والغيرة والتعظيم وعدم الغضب والاشمئزاز، وسوىٰ بين الخبيث والطيب في معاملته وموالاته ومعاداته فأي خير يبقىٰ في قلب هذا . . .) اهـ. من جزء الجهاد ص٣٥.

وتجد بعضهم يضحكون علىٰ أتباعهم من الشباب ويحاربون العزلة علىٰ الإطلاق ويردّون النصوص الثابتة في ذلك . . ويتغنّون بشعر ابن المبارك رحمه الله تعالىٰ حين أرسل إلىٰ الفضيل يقول:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
لعلمت أنّك بالعبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضب

. . . إلىٰ آخر الأبيات.

ولو أبصرهم عابد الحرمين وأبصر دعواتهم هذه المعوجة فلعله يقول: (الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به وفضلني علىٰ كثير ممن خلق تفضيلًا) . . .

وأنا أقول: شتان بين دعواتكم وطرائقكم هذه وبين جهاد ابن المبارك وأولئك الصالحين، حتىٰ تنافسوا بها عبادة الصالحين . . بل وربما لو أبصر ابن المبارك دعواتهم هذه لأرسل للفضيل يقول:

يا عابد الحرمين لو أبصرتهم
لحمدت أنك بالعبادة غائب
من كان لا يدعو بهدي نبيه
فهو الجهول بدينه يتلاعب

۞ ۞ ۞



فصل

نعم . . إن ملة إبراهيم تكلف الكثير . . ولكن بها يتعلق نصر الله والفوز الكبير . . وبها يتميز الناس إلىٰ فريقين . . فريق إيمان، وفريق كفر وفسوق وعصيان . . وبها يتضح أولياء الرحمن من أولياء الشيطان . . وهكذا كانت دعوة الأنبياء والمرسلين . . لم تكن عندهم هذه الأوضاع السقيمة التي نعيشها اليوم من اختلاط الحابل بالنابل، والصالح بالطالح، ومداهنة ومجالسة أهل اللحىٰ لأهل الفسق والفجور وإكرامهم وتقديرهم وتقديمهم علىٰ أهل التقىٰ والصلاح . . رغم إظهار أولئك بغض الدين وعداوته بصور شتىٰ وتربصهم بأهله الدوائر . . بل كانت دعواتهم براءة واضحة من أقوامهم المعرضين عن شرع الله، وعداوة ظاهرة لمعبوداتهم الباطلة، لا التقاء في وسط الطريق ولا مداهنة ولا مجاملة في تبليغ شرع الله . . .

* واستمع إلىٰ نوح في عمق الزمان، وهو يخاطب قومه وحيدًا لا يخشىٰ سلطانهم ولا طغيانهم . . يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يُونُس: ٧١].

وهل يقول مثل ذلك رجل مداهن لقومه . . . إنه كما يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التحدي الصريح المثير، الذي لا يقوله القائل إلا وهو مالئ يديه من قوته، واثق كل الوثوق من عدته، حتىٰ ليُغري خصومه بنفسه، ويحرضهم بمثيرات القول علىٰ أن يهاجموه، فماذا كان وراء نوح من القوة والعدة؟ . . .) اهـ. كان معه الله، وكفىٰ بالله هاديًا ونصيرا . . . وقد أمر الله تعالىٰ نبيه محمدًا ﷺ في مطلع هذه الآيات أن يتلو ذلك علىٰ قومه، فقال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ . . .﴾ [يُونُس: ٧١].

* وانظر إلىٰ هود ﷺ وهو يواجه قومه الذين كانوا أشد الناس قوة وأعتاهم بطشًا، يواجههم وحده . . ولكن بثبات كثبات الجبال أو أشد . . استمع إليه وهو يعلن براءته واضحة جلية من شركياتهم ويسمعهم كلماته الخالدة: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هُود: ٥٥]. يقول لهم ذلك وهو رجل واحد . . . كيدوني بعددكم وجيشكم وآلهتكم الباطلة . . ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هُود: ٥٦].

وإلىٰ الذين يتشدقون بكثير من كلام سيد رحمه الله تعالىٰ، في الوقت الذي يحرصون بل يتسابقون فيه علىٰ استجداء الطواغيت المعرضين عن شرع الله من أجل أن يحكموا شرع الله في بعض القضايا، أو كي يمنحوهم إذنًا للدعوة إلىٰ الله أو من

أجل الحصول علىٰ مقاعد في مجالس الشرك والفسوق والعصيان . . . إلىٰ هؤلاء نسوق كلام سيد حول هذه الآيات . . حيث يقول: (إنها انتفاضة التبرّؤ من القوم وقد كان منهم وكان أخاهم وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقًا . . وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان . . وهو يشهد الله ربه علىٰ براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم. ويشهدهم هم أنفسهم علىٰ هذه البراءة منهم في وجوههم، كي لا تبقىٰ في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم!

وإن الإنسان ليدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة، فيسفّه عقيدتهم ويقرعهم عليها، ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي، لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم، ولا يدعهم يتريّثون فيفثأ غضبهم. إن أصحاب الدعوة إلىٰ الله في كل مكان وزمان بحاجة إلىٰ أن يقفوا طويلًا أمام هذا (الموقف) الباهر . . رجل واحد، لم يؤمن معه إلا القليل، يواجه أعتىٰ أهل الأرض وأغنىٰ أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم . . فهم العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة، والذين أبطرتهم النعمة، والذين يقيمون المصانع يرجون من ورائها الامتداد والخلود . . . إنه الإيمان والثقة والاطمئنان . . الإيمان بالله، والثقة بوعده، والاطمئنان إلىٰ نصره . . ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: ٥٦] . . وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب

من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهرًا . . فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها؟ وهي لا تسلط عليه إن سلطت إلا بإذن ربه؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه؟) أهـ مختصرًا من الظلال.

هكذا كانت أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، مع أقوامهم المعاندين . . وهكذا كانت دعوتهم، صراع دائم مع الباطل، ووضوح في الدعوة، وإعلان للعداوة والبراءة . . ولم تعرف دعواتهم المداهنة أو الرضىٰ عن بعض الباطل أو الالتقاء معه في وسط الطريق.

فمعاداة أهل الحق للباطل وأهله ومفارقتهم لهم قضية قديمة جدًا افترضها الله منذ أن أهبط آدم ﷺ إلىٰ هذه الأرض . . وشاءها الله قدرًا وشرعًا ليتميز أولياؤه من أعدائه وحزبه من حربه والخبيث من الطيّب ويتخذ من المؤمنين شهداء . . فقال جلّ وعلا: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف: ٢٤]، وعلىٰ هذا مضت وسارت قافلة الرسل جميعًا وهذا هو دينهم كما عرفت، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، فمنهم من قص الله علينا قصصهم مع أعدائهم ومنهم من لم يقصص . . . ويؤيد هذا أيضًا حديث أبي هريرة المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: (. . . والأنبياء أولاد

علاّت. .) والعلة هي الضرة مأخوذة من العلل وهي الشربة الثانية بعد الأولىٰ: وكأن الزوج قد علّ منها بعد ما كان ناهلًا من الأخرىٰ. وأولاد العلات أولاد الضرات من رجل واحد . . يؤيد أن الأنبياء أصل دينهم ودعوتهم وطريقهم واحد وفروعهم مختلفة.

* وهكذا كان خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وهو الذي جاء في وصفه أنه «فرق بين الناس» رواه البخاري، وفي رواية: «فرّق بين الناس». فقد استجاب لأمر الله تعالىٰ باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، فما سكت عن الشرك وأهله أو داهنهم أو جاملهم أو غير ذلك . . بل كان في مكة علىٰ قلة اتباعه. واستضعافهم يعلن براءته من الكفار ومعبوداتهم الباطلة . . ويسفهها ويقول كما أمره الله تعالىٰ أن يقول متبرءًا من الشرك ومصرحًا بكفر أهله وبراءتهم من دينه وبراءة دينه منهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦]. ويصرح لهم بأنه ثابت علىٰ طريقته هذه بريء ممن خالفها وأنه من المؤمنين الذين هم أعداء لهم ولدينهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]. ويقول تعالىٰ مخاطبًا له: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا

تَعۡمَلُونَ﴾ ويقول سبحانه معلمًا المؤمنين أن يقولوا: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥١].

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود وغيره أن رسول الله ﷺ قال لأحد أصحابه: (إقرأ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ثم نم علىٰ خاتمتها فإنها براءة من الشرك). وجاء في «رسالة أسباب نجاة السؤول من السيف المسلول» ما ملخصه: «إن كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) قُيّدت بقيود ثقال فإمام الحنفاء ﷺ لم يكتف بمجرد قولها ولم تتم له المحبة والموالاة وهو إمام المحبين إلا بالمعاداة. كما يخبر تعالىٰ عنه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٧٧]، وهذا هو معنىٰ قول (لا إله إلا الله) كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الزُّخۡرُفِ: ٢٨]، فأورثها إمام الحنفاء ﷺ لأتباعه يتوارثها الأنبياء بعضهم عن بعض فلما بعث نبينا محمد ﷺ أمره الله بقولها كما قالها أبونا إبراهيم فأنزل الله ﷻ بها سورة كاملة هي سورة الكافرون» اهـ. من مجموعة التوحيد.

وقد صدع بها النبي ﷺ وأعلنها وما كتمها، وتحمل هو وأصحابه ما نالهم من أذىٰ علىٰ ذلك وما داهنهم لأجل ذلك، وحاشاه من أن يداهنهم، وإنما كان يثبت أولئك المؤمنين

ويذكرهم بوعد الله تعالىٰ وجنته، وبمواقف أهل الثبات ممن كانوا قبلهم، كقوله: (صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة) رواه الحاكم وغيره.

وقوله لخباب: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتىٰ بالمنشار فيوضع علىٰ رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمن الله تعالىٰ هذا الأمر حتىٰ يسير الرّاكب من صنعاء إلىٰ حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب علىٰ غنمه، ولكنكم تستعجلون)[1].

يقول لأصحابه ذلك .. وفي الوقت نفسه يقول لقريش كما أمره الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فُصِّلَت: ٦] والآيات مكية. ويقول: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا

(١) رواه البخاري وغيره، وهكذا كان صلوات الله وسلامه عليه، يثبت أصحابه ويذكرهم دومًا بأخبار أهل الثبات، حتىٰ إذا ما ابتلي أحدهم في الله بلاء شديدًا، لا يطيقه، ووقع فيما وقع فيه عمار رضي الله عنه، ذكر له عفو الله عن ذلك وترخيصه فيه ... لا كأحوال كثير من دعاة زماننا، يدندنون علىٰ أحاديث الرخص والإكراه والضرورات طوال حياتهم، وكل أيامهم في غير مقامها، ويلجون بحجتها في كل باطل، ويكثرون سواد حكومات الكفر والإشراك، دونما إكراه أو اضطرار حقيقين ...فمتىٰ يظهرون الدين؟؟

يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٥-١٩٧] والآيات مكية.

لذلك كله ولأجل أن دعوته كانت كذلك فإن الظالمين ما رضوا عنه يومًا ما، ولا طابت أنفسهم أو قرت أعينهم بدعوته .. بل ثارت ثائرتهم وقامت قيامتهم .. وكم ساوموه .. ولكنه وقف شامخًا ينظر إلىٰ باطلهم وجموعهم التي يكيدونه بها، ويترفع مع حرصه علىٰ هدايتهم عن الالتقاء معهم علىٰ الباطل في منتصف الطريق أو اتباع قليل من بعض ما يهوونه أو يحبونه من باطلهم .. بل كان يقول لهم بعد ذلك ودائمًا كما أمره ربّه أن يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن بعدما ذكر بعض مواقف الصدع والثبات لأصحاب النبي صلىٰ الله عليه: «فهذه حال أصحاب رسول الله ﷺ وما لقوا من المشركين من شدة الأذىٰ، فأين هذا من حال هؤلاء المفتونين الذين سارعوا إلىٰ الباطل وأوضعوا فيه وأقبلوا وأدبروا وتوددوا وداهنوا وركنوا وعظموا ومدحوا؟ فكانوا أشبه بما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤]، نسأل الله تعالىٰ الثبات علىٰ الإسلام، ونعوذ به من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، ومن المعلوم أن الذين

أسلموا وآمنوا بالنبي ﷺ وبما جاء به لولا أنهم تبرؤوا من الشرك وأهله وبادروا المشركين بسب دينهم وعيب آلهتهم لما تصدوا لهم بأنواع الأذىٰ . . .) أهـ. من الدرر - جزء الجهاد ص(١٢٤).

* يقول الشيخ حمد بن عتيق عند كلامه علىٰ سورة (البراءة من الشرك): «فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول للكفار: دينكم الذي أنتم عليه أنا بريء منه وديني الذي أنا عليه أنتم براء منه، والمراد التصريح لهم بأنهم علىٰ الكفر، وإنه بريء منهم ومن دينهم، فعلىٰ من كان متبعًا للنبي ﷺ أن يقول ذلك، ولا يكون مظهرًا لدينه إلا بذلك، ولهذا لما علم الصحابة بذلك، وآذاهم المشركون، أمرهم «بالهجرة إلىٰ الحبشة ولو وجد لهم رخصة في السكوت عن المشركين(١) لما أمرهم بالهجرة إلىٰ بلد الغربة» اهـ. من سبيل النجاة والفكاك. ص (٦٧).

وهنا شبهة يرددها أكثر ما يرددها من لم يفقه ملة إبراهيم عليه السلام ولم يعرف مضمونها وذلك قول كثير من الجهال إن ملة إبراهيم منسوخة في حقنا، ويستدلون علىٰ ذلك بالأصنام التي كانت حول الكعبة والتي لم يكسرها ﷺ بزعمهم طوال مكوثه في

(١) رخصة السكوت عن إظهار عداوة المشركين وإبداء عيب وذم آلهتهم الباطلة؛ موجودة في ديننا للمستضعف؛ وقد كان بعض الصحابة يكتم إسلامه وبراءته من الشرك والمشركين وبعضهم يعلن ذلك؛ والهجرة الأولىٰ لم تكن واجبة علىٰ جميع المؤمنين بل كانت لمن خشي من أذىٰ الكفار وفتنتهم له عن دينه.

مكة عهد الاستضعاف .. حتىٰ أنني سمعت أحد هؤلاء وهو من المشايخ المعروفين وقد ملأت كتبه الأسواق، سمعته في محاضرة مسجلة له، يتبجح ويقول ما مجمله: (إن الرسول ﷺ أول من أعرض عن ملة إبراهيم هذه التي تريدونها إذ جلس في مكة ثلاث عشرة سنة بين تلك الأصنام لم يحطمها ...) فنقول له ولأمثاله: إن الذي صدكم عن فهم ملة إبراهيم ومعرفتها هو نقص أفهامكم وضيق أفق أذهانكم بحصركم لها في تكسير الأصنام، وظنكم أن ملة إبراهيم التي نقصدها مستوحاة فقط من فعله ﷺ حين راغ علىٰ أصنام قومه ضربًا باليمين، فجعلهم جذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون .. ولما لم يثبت عندكم أن رسول الله ﷺ فعل ذلك مع أصنام قومه .. أمست هذه الملة في أنظاركم الضيقة منسوخة في حقنا كلها، ولا تتناولنا في شيء من الأشياء، وبالتالي فلازم قولكم هذا أن كل ما جاء من الآيات المتقدمة الذكر في الحث علىٰ اتباع ملة إبراهيم والتحذير من الإعراض عنها وتفصيل دعوة إبراهيم ﷺ والذين آمنوا معه، وموقفهم من أقوامهم ومواقف الأنبياء وغيرهم مع أقوامهم .. كل ذلك عبث وزيادة لا طائل تحتها ولا فائدة من ورائها في كتاب الله، سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم .. ورحم الله ابن القيم إذ يقول:

من كان هذا القدر مبلغ علمه

فليستتر بالصمت والكتمان

وتنزه الله وتعالىٰ عن العبث وعن أن يكون في كتابه جل وعلا ما لا فائدة من ذكره . . ومثل هذه الأغاليط ليست من الشبهات التي تستحق طول الرد والتفصيل وما هي إلا تناقضات في أذهان أصحابها حالت دون فهمهم لهذه الملة العظيمة بتفاصيلها . . خاصة وقد علمت فيما تقدم ملة إبراهيم وفهمت مضمونها وما يراد بها . . فعلمت أنها أصل الإسلام ومعنىٰ لا إله إلا الله وأن فيها ما حوته هذه الكلمة من النفي والإثبات وهما التبرؤ من الشرك وأهله وإظهار العداوة لهم، وإخلاص العبادة لله وحده وموالاة أوليائه، وعلمت أن هذا أصل الدين فهو شرع محكم لو اجتمع علىٰ دفعه من بأقطارها من عالم وجاهل لما قدروا علىٰ رده بحجة أصلًا، وبيّنا لك أن الله تعالىٰ ذكر لنا حال إبراهيم ﷺ ومن معه من المؤمنين مع قومهم، وكيف تبرؤوا منهم وأظهروا لهم العداوة والبغضاء . . وأنه سبحانه قال قبل ذكر موقفهم هذا مباشرة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [المُمتَحنَة: ٤]، وقال سبحانه بعد ذلك أيضًا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [المُمتَحنَة: ٦]، ثم قال سبحانه . . وتنبه لما قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [المُمتَحنَة: ٦]، وعلمت أيضًا أن هذا هو أصل ملة إبراهيم التي نقصدها وندعو إليها ونرىٰ أكثر أهل الأرض مقصرين فيها . . وعلمت أنها الطريق الذي فيه نصر الله ﷻ وإعزاز دينه وتحطيم الشرك وأهله . . وإذا كان الأمر كذلك . . فالرد علىٰ هذه الطريق

إذًا يكون بأن يصحح ذلك الشيخ عبارته المذكورة فيقول: (إن النبي ﷺ مكث ثلاث عشرة سنة في مكة بين تلك الأصنام لا يتبرأ منها ولا يظهر الكفر بها والعداوة لها) ليقال له بعدها؛ عد نفسك نصرانيًا أو يهوديًا أو مجوسيًا، أو ما شئت، أما ملة الإسلام فقل لها عليك السلام . . .

ونقول: أما تحطيم الأصنام حقيقة وحسيًا كما فعل إبراهيم فقد صح عن النبي ﷺ أنه فعل شيئًا منه حينما تمكن من ذلك وقدر عليه في غفلة من كفار قريش، ولا أعني بعد الفتح بل في مكة في عهد الاستضعاف، كما روىٰ الإمام أحمد وأبو يعلىٰ والبزار بإسناد حسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (انطلقت أنا والنبي ﷺ حتىٰ أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ اجلس وصعد علىٰ منكبي فذهبت لأنهض به فرأىٰ مني ضعفًا فنزل وجلس لي نبي الله ﷺ وقال: اصعد علىٰ منكبي. قال فصعدت علىٰ منكبيه، قال فنهض بي قال فإنه يخيل إلي أني لو شئت لنلت أفق السماء حتىٰ صعدت علىٰ البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس فجعلت أزاوله عن يمينه وشماله وبين يديه ومن خلفه، حتىٰ إذا استمكنت منه قال لي رسول الله ﷺ: اقذف به فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق حتىٰ توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس) وبوّب له الهيثمي في مجمع الزوائد: (باب تكسيره ﷺ الأصنام) وذكر رواية (كان علىٰ الكعبة أصنام فذهبت أحمل رسول الله ﷺ فلم أستطع

فحملني فجعلت أقطعها . . .) وفي رواية زاد (فلم يوضع عليها بعد، يعني شيئًا من تلك الأصنام) قال: ورجال الجميع ثقات . . وذكره أبو جعفر الطبري في (تهذيب الآثار) وتكلم علىٰ بعض الفوائد الفقهية فيه، أنظر ص٢٣٦ إلىٰ ص٢٤٣ من مسند علي فيه . .

لذلك فنحن لا نتحرج أبدًا من القول بأن ذلك مطلوب منا أيضًا حال القدرة عليه في عهد الاستضعاف وغيره . . سواء كان ذلك الصنم تمثالًا أو قبرًا أو طاغوتًا أو نظامًا . . أو غيره، حسب تنوع الصور واختلافها في كل زمان ومكان . . وأقصد بذلك الجهاد والقتال وهو أعلىٰ مراتب إظهار العداوة والبغضاء لأعداء الله . . .

ومع ذلك نقول لو سلمنا جدلًا أنه لم يصح عن النبي ﷺ تحطيم الأصنام في مكة زمن الاستضعاف . . فإنه صلوات الله وسلامه عليه كان متبعًا لملة إبراهيم أشد الاتباع آخذًا بها بقوة . . فما داهن الكفار لحظة واحدة وما سكت عن باطلهم أو عن آلهتهم . . بل كان همه وشغله الشاغل في تلك الثلاث عشرة سنة بل وغيرها هو ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وكانت هذه الدعوة تهيء الناس لتحطيم الأصنام في واقعهم؛ لأنها تحطمها في نفوسهم وتهدمها في قلوبهم وتسقطها معنويا ليتهيؤوا لهدمها حسيا بأيديهم فلا يعني كونه جلس بينها تلك

الثلاث عشرة سنة أنه مدحها أو أثنىٰ عليها أو أقسم علىٰ احترامها كما يفعل كثير من الجهال المنتسبين إلىٰ الدعوة مع الياسق العصري في هذا الزمان . . بل كان يعلن براءته من المشركين وأعمالهم، ويبدي كفره بآلهتهم رغم استضعافه واستضعاف أصحابه . . وقد فصّلنا لك هذا فيما مضىٰ ولو تأملت القرآن المكي، لوضح لك مثل ذلك الكثير . . منه علىٰ سبيل المثال، قوله تعالىٰ واصفًا حال نبيه ﷺ في مكة مع الكفار: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، قال ابن كثير: (يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم . . إلىٰ غير ذلك).

وإليك أيضًا ما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره بإسناد صحيح في صفته وحاله ﷺ في مكة زمن الاستضعاف . . تأمّله وتدبّره وانظر كيف يصف الكفار نبينا ﷺ بسب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وو . . وانظر إليهم وهو يحيطون به وحيدًا فريدًا يقررونه بما يقول ويقولون له: (أنت الذي تقول كذا وكذا؟؟) فيرد عليهم دون مداهنة أو مهابة أو خوف أو وجل، بل بكل صلابة وثبات ووضوح: (نعم، أنا الذي أقول ذلك).

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي قال يعقوب: حدثنا أبي عن ابن إسحاق قال: وحدثني يحيىٰ بن عروة بن الزبير

عن أبيه عروة عن عبد الله ابن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابت من رسول الله ﷺ، فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط سفّه أحلامنا. وشتم آبائنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه علىٰ أمر عظيم، أو كما قالوا، قال: فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي، حتىٰ استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما أن مر بهم، غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضىٰ، فمر بهم الثانية، فغمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضىٰ، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فقال: (تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح) فأخذت القوم كلمته، حتىٰ ما منهم رجل إلا كأنما علىٰ رأسه طائر واقع، حتىٰ إن أشدهم فيه وصاه قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتىٰ إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدًا، فوالله ما كنت جهولًا، قال: فانصرف رسول الله ﷺ، حتىٰ إذا كان الغد، اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتىٰ إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه! فبينما هم في ذلك، إذ طلع [عليهم] رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به، يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان

يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: نعم، أنا الذي أقول كذا، قال: فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه، قال: وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، دونه يقول وهو يبكي: (أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟). ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا بلغت منه قط» اهـ. (٧٠٣٦ من المسند تحقيق أحمد شاكر وقال: إسناده صحيح) وهو كما قال. وفي رواية أخرىٰ في المسند أيضًا (٢/ ٢٠٤) أن النبي ﷺ كان في المرة الثانية في صلاة عند الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب النبي ﷺ ولوىٰ ثوبه في عنقه، فخنقه به خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال: (أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم).

فتأمّل حال النبي ﷺ الذي وصفته الملائكة كما في صحيح البخاري: (أنه ﷺ فرّق بين الناس) تأمل حاله هذه مع كفار زمانه وكيف أنها عداوة ظاهرة لكل من عادىٰ الدين، وافتراق طريق، وبراءة واضحة .. وليس كأوضاع أهل زماننا الشاذة من ركون أهل الدين لأهل الباطل .. داهنوهم وجاملوهم بل وآزروهم وناصروهم ولم تعد القضية قضية عداوة ولا براءة، بل تعاون وتكاتف لصالح الوطن والمجتمع وجلسوا في أحضانهم ورضعوا من ألبانهم .. فالله المستعان.

* يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن وهو يتكلم عن أمثال هؤلاء: (خاضوا في غمرات الافتتان واطمأنت قلوبهم إلىٰ أهل الظلم والعدوان، وأكثروا التردد عليهم والمسير إليهم طوعًا واختيارًا وتعرضوا لما في أيديهم من حطام الدنيا سرًا وجهارًا، فأين القلب المطمئن بالإيمان إذا كان مدعيه يجري مع الهوىٰ في كل ميدان، فما أشبه حال هذا وأمثاله بالضرب الذين ذكرهم العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهم الذين لهم أوفر نصيب من قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص، وهذا يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلىٰ العلم والعبادة عن الصراط المستقيم) اهـ الدرر - جزء الجهاد ص١٢٧.

* وها هنا مسألة قد يرد فيها إشكال علىٰ البعض، وهي كيفية الجمع بين عيبه ﷺ آلهتهم ودينهم كما في هذا الحديث وغيره، وبين قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فنقول وبالله التوفيق: أن كل ما ذكرناه مما تقدم في تفصيل ملة إبراهيم من عيب الآلهة الباطلة وتسفيهها والحطّ من قدرها وإن سمّاه البعض سبًا .. فإنه ليس سبًا مجردًا وإنما أصل المقصود به بيان التوحيد للناس وذلك ..

* بإبطال ألوهية هذه الأرباب المتفرقة المزعومة والكفر بها وبيان زيفها للخلق: كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٧]، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢]، وقوله تعالىٰ في سورة النجم: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩-٢٢]. وكذا كل ما جاء في وصف هذه الآلهة كبيان أنها لا تستحق العبادة أو تسميتها بالطاغوت أو جعل عبادتها طاعة للشيطان وإنها وإياهم حصب جهنم . . وغير ذلك.

* وكذلك القيام بهذا التوحيد عمليًا بإظهار عداوتها وبغضها والبراءة منها والكفر بها، كقوله تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]. وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، وما تضمنته سورة البراءة من الشرك من معانٍ وغير ذلك مما قدمناه . . فذلك كله لا يدخل في السب المجرد الذي نهت عنه الآية المذكورة، والذي من طبيعته أن يستثير الخصم ويهينه ويعيره فقط دون فائدة أو بيان، فيسب الله ﷻ عدوًا وجهلًا

وربما دون قصد، خاصة فيمن يعتقد بالربوبية ككفار قريش، وكذلك الحال بالنسبة لعبيد الياسق . . فإن ملة إبراهيم تقتضي أن يحذر من ياسقهم ويعادىٰ ويبغض ويُدعىٰ الناس إلىٰ الكفر به والبراءة منه ومن أوليائه وعبيده المصرّين علىٰ تحكيمه، بذكر فضائحه وكشف زيوفه وبطلان أحكامه ومصادمتها الصريحة لدين الله بإباحتها للردة والربا وتسهيلها للفاحشة والفجور وتعطيلها لحدود الله كحد الزنا والقذف والسرقة وشرب الخمر واستبدال القوانين الفاجرة الكافرة بهذه الحدود العظيمة . . وما إلىٰ ذلك وهو كثير جدًا . . فهذا كله لا يدخل فيما نهت عنه الآية وإن سماه عبيد الياسق وسدنتهم سبا . . أو إطالة لسان بل الواجب كما عرفت مما تقدم أن يظهره الدعاة ويصدعوا به . . أما سبهم وسب حكوماتهم وحكامهم ودساتيرهم سبًا مجردًا هكذا للإستثارة المجردة . . فهو المنهي عنه لما يترتب عليه من سب أولئك الجهال للساب ولدينه وطريقته وإن كانوا ينتسبون إلىٰ الإسلام زورًا وبهتانًا . . ويشهدون بربوبية الله وربما يوحدونه ببعض أنواع ألوهيته دون الحكم والتشريع . . كما ذكر المفسرون: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾ أي فيسبوا آمركم بسبّها فيعود ذلك علىٰ الله جهلًا وعدوًا بغير علم، كما قد يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، وربما كانا أخوين لأب واحد، فالغيظ والغضب والاستثارة المجرّدة تعمي الخصم عن التفكير والتدبر وتستسبه؛ أي تحمله علىٰ السب . . قال محمد رشيد رضا في تفسيره: (الباعث علىٰ العمل هنا هو

إرادة السب التي يُقصد بها إهانة المسبوب، فإن هذا الساب لا يتوجه قصده إلا إلىٰ إهانة مخاطبه الذي سبه)اهـ. بخلاف تدخيل العقل، والدعوة إلىٰ إعماله ومخاطبته ولفت انتباهه إلىٰ زيف هذه الآلهة وكونها لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ولا تقرب ولا تشفع ولا تغني عن أنفسها وأتباعها شيئًا . . وتأمل قصة إبراهيم مع قومه وكيف يلفت فيها انتباههم إلىٰ زيف تلك الآلهة المزعومة، ويستثيرهم لا لمجرد الاستثارة أو الإهانة بل ليفكروا ويتصادموا مع عقولهم في ذلك . . وتأمل كيف يفتضح أمرهم بذلك وينتكسوا ويتناقضوا ويتخبطوا . . فيقول لهم عند ذلك معنّفًا: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

ولو تأملت قول عبد الله بن عمرو راوي الحديث السابق حين ذكر قول قريش للنبي ﷺ (أنت الذي تقول كذا كذا) قال مفسرًا لذلك: (لما بلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم). والعيب عند العرب سب أو كالسب وقد عده ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ كذلك في كتابه الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول في (بيان أقسام السب) ص٥٢٨ وغيرها . . ولكنه في هذا الموضع ليس سبًا مجردًا كما عرفت . . فالنبي ﷺ كان قائمًا بدعوة التوحيد التي أرسله الله بها وبملة إبراهيم التي أمره سبحانه باتباعها. وهذا كله سب عند أولئك المشركين، لأنّه إبطال لدينهم وتنقص لآلهتهم المزعومة بتجريدها من صفات الألوهية التي ينعتونها بها . . وهذا

هو عيب آلهتهم الذي ذكروه .. وكذلك وصف آبائهم بالضلال ليس استثارة مجردة لذاتها، بل لزجرهم عن تقليدهم ونهيهم عن متابعتهم علىٰ ضلالهم .. نقل القاسمي في تفسيره عن الرازي قوله: (وفي الآية تأديب لمن يدعو إلىٰ الدين، لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب، لأن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تضر ولا تنفع، يكفي في القدح في إلهيتها فلا حاجة مع ذلك إلىٰ شتمها) اهـ ... ولكن ذلك أيضًا لا يرضي الكفار ولا يعجبهم وإن لم يكن سبًا مجردًا، فهو نسف لآلهتهم وكفر بها .. لذا سموه سبًا، كما سمّوا وصف آبائهم بالضلال، شتما حيث قالوا: (سفَّه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ...).

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الموضع الثاني من المواضع الستة التي ذكرها في السيرة عن النبي ﷺ أنه لما صرح بسب دينهم وتجهيل علمائهم فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة وقالوا: سفه أحلامنا وعاب ديننا وشتم آلهتنا، ومعلوم أنه ﷺ لم يشتم عيسىٰ وأمه ولا الملائكة ولا الصالحين ولكن لما ذكر انهم لا يدعون ولا ينفعون ولا يضرون جعلوا ذلك شتمًا) أهـ.

والخلاصة أن ذلك كله لا يدخل في السب المجرد الذي نهىٰ الله عنه في الآية، ولا هو مقصود بها، حتىٰ ولو ترتب علىٰ مثله أن يسب الكافر الله أو الدين عدوا، فليس للمسلم أن يترك

لأجله ما أوجب الله عليه من الصدع بالتوحيد وإظهار الدين فالسب هنا لا يكون إلا عدوًا بعلم، لورود الحجة والبيان، وإلا لو حسبنا حسابًا لمثل ذلك، لتركنا ديننا كله وتنازلنا عنه لسواد عيون الكفار . . لأنه كله قائم علىٰ أصل الإيمان بالله والكفر بكل طاغوت . . . فتنبّه . . وقس علىٰ ذلك ما يقال في هذه الطواغيت العصرية . . من دساتير ومناهج وقوانين وحكام وغيرهم . . ولا تقصر المعنىٰ علىٰ الأصنام الحجرية، فتُحجّر واسعًا . .

* فهذه القاعدة إنما تكون صوابًا في المباحات والمستحبات لا في الواجبات فلا يُترك واجب من واجبات الدين كبيان التوحيد وإبطال دين المشركين سدًا لهذه الذريعة. كما قد يفهم البعض . . ولو توسعنا في ذلك لأضعنا جُلّ ديننا . . لذا قال أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن، ص٤٧٣ : (**المسألة الثانية**): (هذا يدل علىٰ أن للمحق أن يكف عن حق يكون له إذا أدىٰ ذلك إلىٰ ضرر يكون في الدين، وهذا فيه نظر طويل، اختصاره أن الحق إن كان واجبًا فيؤخذ بكل حال، وإن كان جائزًا ففيه يكون هذا القول والله أعلم) اهـ. ويقول محمد رشيد رضا : (﴿وَمِنْهَا﴾ ما نُقل عن أبي منصور قال: كيف نهانا الله تعالىٰ عن سب من يستحق السب لئلا يسب من لا يستحقه، وقد أمرنا بقتالهم وإذا قاتلناهم قاتلونا، وقتل المؤمن بغير حق منكر؟ وكذا أمر النبي ﷺ بالتبليغ والتلاوة عليهم وإن كانوا يكذبونه . . . وأجاب عنه: بأن سب الآلهة مباح غير مفروض، وقتالهم فرض وكذا التبليغ، وما كان مباحًا ينهىٰ

عما يتولد منه ويحدث، وما كان فرضًا لا ينهىٰ عما يتولد عنه..) أهـ. وبمثل ذلك يُردّ علىٰ من احتج لإبطال ما ذكرناه من وجوب إظهار الدين، بما رواه البخاري في صحيحه، أن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]. أنزلت ورسول الله ﷺ متوار بمكة. فكان إذا رفع صوته سمع المشركون فسبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، لا تجهر بصلاتك حتىٰ يسمع المشركون. ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تُسمعهم، وابتغ بين ذلك سبيلًا.

فالدعوة إلىٰ الله قائمة ودين المسلمين ظاهر ودعوتهم لنبذ الأوثان معلومة لكل أحد في مكة وبراءتهم منها بيّنة بادية، وإذا كان الأمر كذلك فترك الجهر بقراءة القرآن عند تلاوته، لدفع هذه المفسدة لا يطفىء نور الدعوة ولا يؤثر فيها تأثيرًا سلبيًا أبدًا.. فالقرآن ينتشر في كل مكان رغم أنوف المشركين.. وملة إبراهيم معلنة لدرجة أن كل من يعلن إسلامه يسمىٰ بالصابىء، أي الكافر بدينهم وبأوثانهم، والأمر في غاية الوضوح لا لبس فيه ولا إشكال.. أضف إلىٰ ذلك أن رفع الصوت بالقراءة في الصلاة ليسمعه غير المصلين ليس واجبًا من واجبات الصلاة، فجاز تركه سدًا لهذه الذريعة، طبقًا لقاعدتها المذكورة الخاصة بترك المباحات والمستحبات دون الواجبات، فليس هذا تركًا لواجب بل يكفي في ذلك أن يسمع الإمام من يصلي خلفه وهو ما

أمر الله تعالىٰ به رسوله في قوله: ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي عن أصحابك.

* وهناك شبهة أخرىٰ قد يحتج بها البعض .. وهي إيواء أبي طالب للنبي ﷺ الذي امتن الله ﷻ به عليه فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضُّحَىٰ: ٦]، وكذا قصة جوار وأمان الكافر للمسلم وأمثلته كثيرة، من ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن جوار ابن الدغنة لأبي بكر في مكة .. وكذا النجاشي وإيوائه للمسلمين وهو علىٰ نصرانيته قبل إسلامه ... وما شابهه ... وخلاصة هذه الشبهة: (كيف يرضىٰ المسلم في مثل هذه الأحوال بإيواء وحماية وجوار الكافر المخالف له في عقيدته ومنهجه؟؟ أفلا يتنافىٰ هذا مع ملة إبراهيم في البراءة من المشركين ...؟).

فنقول وبالله التوفيق: أن لا تعارض في هذه الأمثلة المذكورة مع ملة إبراهيم، ودعوة الأنبياء والمرسلين وذلك لأن الأمر كما قدمنا لك من قبل قسمان:

الأول: البراءة من آلهتهم الباطلة والكفر بطواغيتهم التي تعبد من دون الله ﷻ.

الثاني: عداوة المشركين المعاندين المصرّين علىٰ باطلهم .. وقدمنا أيضًا أن الأول مطلوب من المسلم منذ أول خطوة في الطريق دون توان أو تأخير، بل يجب أن يعلن ويظهر ويبدىٰ من قبل طائفة من المسلمين كي يعرف الناس به أصل الدعوة، ويشتهر حتىٰ يصبح بدهية يوصف بها كل من يدخل في هذا الدين ..

أما الثاني، فلا يبدىٰ أو يعلن، إلا بعد الإصرار علىٰ الباطل وعداوة الحق وأهله. فأبو طالب مثلًا .. علىٰ الرغم من بقائه علىٰ الكفر لم يكن مظهرًا العداوة والبغضاء للحق وأهله، بل علىٰ العكس من ذلك فقد كان ردءًا مدافعًا عن صاحب الحق ورسوله ﷺ كما وصفه العباس رضي الله عنه في حديث البخاري حيث قال للنبي ﷺ: (ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك وينصرك ويغضب لك ... الحديث) وإن كان ذلك في عصبية ولروابط نسبية وراجع في ذلك ما ذكره العلامة الشنقيطي في أضواء البيان المجلد الثالث (ص٤١، ٤٣، ٤٠٦، ٤٠٧) في تأييد الدين بالرجل الفاجر وبالروابط العصبية والأواصر النسبية مع بطلان هذه الروابط وبطلان الود علىٰ أساسها وحدها ... والشاهد من ذلك أن مثل هذا النصير أو المجير .. يبقىٰ الأمل واردًا في هدايته واتباعه للحق إلىٰ آخر لحظة ما دام لا يقف مع الصف المعادي المحارب له بل يقف مدافعًا عن بعض أتباعه ... فكيف إذا أضيف إلىٰ ذلك كونه من خاصة الداعية وقرابته الذين يتعلقون به ... ولذلك فإن النبي ﷺ لم ييأس من دعوة عمه الذي كان يقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتىٰ أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك
أبشر بذاك وقر منه عيونا

وقبل ذلك كله، هناك أمر آخر . . . وهي النقطة الأولىٰ والمهمة في الموضوع . . أن النبي ﷺ مع موقف عمه المدافع هذا، لم يكن ليداهنه علىٰ حساب دعوته ودينه، بل كان عمه يعرف بدعوته ﷺ ويسمع بعداوته وبعيبه لآلهتهم الباطلة، وقد حاولت قريش معه للضغط علىٰ النبي ﷺ ليكفّ عن دعوته وعن عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، وعندما حاول أبو طالب السعي لمثل ذلك، ما داهنه صلوات الله وسلامه عليه ولا تنازل عن شيء من أمر دينه تطييبًا لخاطر عمّه الذي كان يحميه وينصره ويؤويه، بل قال قولته المعروفة: (والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بُعثت به، من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من نار) كما في الطبراني وغيره. وهو ﷺ كذلك أولًا وآخرًا لم يكن ليربطه بعمه الكافر ود ولا حب كيف وهو ﷺ قدوتنا ومثلنا الأعلىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ . . .﴾ الآية، مع حرصه علىٰ هدايته . . . فذلك شيء والحب والود شيء آخر . . . وما كان النبي ﷺ رغم إيواء عمه وحمايته له ودفاعه عنه ليصلي عليه يوم أن مات . . . بل نهاه الله ﷻ عن مجرد الاستغفار له يوم أنزل عليه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] الآية، وما كان منه صلوات الله وسلامه عليه عندما جاءه علي رضي الله عنه فقال له: (إن عمك الشيخ الضال قد مات فمن يواريه؟ . . .) غير أن يقول له: (اذهب فواره) رواه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما.

ومثل ذلك أيضًا يُقال في رهط شعيب الذين كانوا مانعًا دونه والكفار، قال تعالىٰ مخبرًا عن أعداء نبيه: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ [هُود: ٩١]. وقد كانوا كفارًا . . . وكذا نبي الله صالح عليه السلام ووليه الذي كان الكفار يحاذرونه ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النَّمل: ٤٩].

* أضف إلىٰ ذلك أن هناك فرقًا واضحًا يجب أن يُلاحظ ويعتبر بين أن يُعين الكافر مسلمًا أو يجيره وينصره ويحميه ويأويه بنفسه دون أن يذل المسلم نفسه له أو يتودّد، وإنما يفعل الكافر ذلك من تلقاء نفسه بدافع القبلية أو العصبية أو القرابة وغيرها . . . وبين أن يطلب المسلم ذلك منه ويكون في طلبه نوع ذل ومهانة ومداهنة أو إقرار وسكوت عن باطله أو رضىٰ بشركه . . لا شك أن الفرق بين الحالتين واضح بين لا يخفىٰ علىٰ البصير، ولو تأملت هذه الأمثلة لرأيتها من الجنس الأول . . ولأبي جعفر الطحاوي كلامًا لطيفًا يشبه هذا في مشكل الآثار (٣/ ٢٣٩) فرّق فيه بين الاستعانة بالمشركين في القتال وكون ذلك مما نهىٰ الله تعالىٰ عنه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ [آل عِمرَان: ١١٨] الآية، وبين قتالهم بأنفسهم ضد أعداء المسلمين دون طلب واستعانة من المسلمين أنفسهم، فراجعه فإنه مفيد في هذا الباب . . وكذا جوار ابن الدغنة لأبي بكر . . . فكله من هذا القبيل . .

ومن ذلك أيضًا صلة الوالدين المشركين ومصاحبتهما بالمعروف وتألّف قلبيهما، لأن أمل التأثر بابنهما واتباع الحق الذي يدعو إليه وارد باقٍ ما داما متعلقين بالولد .. حتىٰ وإن جاهداه علىٰ أن يشرك بالله ... ما لم يقفا في الصف المحارب المعادي الصاد عن سبيل الله ... فإن فعلا ذلك تبرأ منهما علانية كما فعل إبراهيم مع أبيه لما تبين له أنه عدو لله .. بل ويعاديهما ويقاتلهما كما فعل أبو عبيدة وغيره من الصحابة في بدر .. فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كما قدمنا كان يتألف قلب أبيه ويدعوه بالحسنىٰ واللين ويظهر حرصه علىٰ هدايته وخوفه عليه من عذاب الله لأولياء الشيطان .. ولكنه تبرأ منه واعتزله عندما تبين له عداوته الصريحة لله ... واستثنىٰ سبحانه مما دعانا للتأسي فيه بإبراهيم والذين معه في سورة الممتحنة؛ استغفاره لأبيه، ونهىٰ المؤمنين في سورة التوبة عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربىٰ ثم قال عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ثم استثنىٰ سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ ... [العَنكبوت: ٤٦].

وكذا أمان النجاشي للمهاجرين .. وارجع إلىٰ قصة جعفر وموقفه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الصدع بدينه ومعتقده في عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي يخالف

فيه دين من هو بين ظهرانيهم، رغم استضعافه ومن معه، ورغم دخولهم في أمانهم . . بل إن النجاشي بكىٰ لما سمع كلام الله يُتلىٰ، وأظهر التأييد والقبول وأعطاهم الأمان فأظهروا دينهم ومعتقدهم لكل أحد، فكان إسلام النجاشي ومن أسلم من أهل الحبشة بتوفيق الله تعالىٰ ثم بسبب إظهارهم لدينهم رضي الله تعالىٰ عنهم . . وراجع في رد هذه الشبهة وإبطالها رسالة (المورد العذب الزلال) للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله أجمعين في الدرر السنية جزء مختصرات الردود ص١٢٤ وكذا ص١٩٧ من الجزء نفسه فإنه مهم في رد هذه الشبهة وشبهة أخرىٰ وهي احتجاجهم (بمؤمن آل فرعون) وكذا ص٢١٢.

* وخلاصة القول في ذلك كله . . . أن معاداة أهل الباطل وإظهار البراءة منهم ومن آلهتهم الزائفة وأديانهم الباطلة وقوانينهم العفنة . . أصل عظيم، وركن وثيق في دعوة الأنبياء والمرسلين . . وهو كما عرفت شرع محكم يرتكز علىٰ أصل دين الإسلام وقاعدته . . فلو اجتمع أهل الأرض جميعًا لأجل رده وإبطاله لما استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلا . . والمخالفون فيه لا يستدلون كما رأيت إلا بأمثال هذه القضايا العينية الخاصة التي لا عموم لها عند جماهير الأصوليين والنظار، بل هي نفسها مطروحة علىٰ التقييد والتخصيص . . وإذا تقرر أن هذه الطريق أصل عظيم محكم . . . فقد أمست هذه الأدلة الجزئية وغيرها مما

يتوهمه المخالفون معارضًا . . . متشابهًا يجب رده إلىٰ المحكم، لا أن يضرب كتاب الله بعضه ببعض ولا سنة المصطفىٰ كذلك . . فتنبّه ولا تغتر بشبه الملبسين . .

«وهكذا فلا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة . . ويوم تتم هذه المفاصلة يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه والتدمير علىٰ أعدائه . . ففي تاريخ الدعوة إلىٰ الله علىٰ مدار التاريخ، لم يفصل الله بين أوليائه وأعدائه إلا بعد أن فاصل أولياؤه أعداءه علىٰ أساس العقيدة، فاختاروا الله وحده . . وأصحاب الدعوة إلىٰ الله لهم أسوة حسنة في رسل الله . . . وإنه لينبغي لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتىٰ تفيض . . وإن لهم أن يتوكلوا علىٰ الله وحده في وجه الطاغوت أيًا كان . . ولن يضرهم الطاغوت إلا أذىٰ . . ابتلاء من الله لا عجزًا منه سبحانه عن نصرة أوليائه، ولا تركًا لهم ليسلمهم إلىٰ أعدائه، ولكنه الابتلاء الذي يمحص القلوب والصفوف . . ثم تعود الكرّة للمؤمنين . . ويحق وعد الله لهم بالنصر والتمكين . . .» اهـ. من الظلال بتصرف.

*** ولتعلم أخيرًا أن الناس مع هذا الحق أقسام:**

* رجل ثابت صادع بملة إبراهيم وبدين جميع المرسلين علىٰ النحو الذي تقدم لا يخاف في الله لومة لائم، فهذا من الطائفة الظاهرة المنصورة وهو الداعي إلىٰ الحق الذي يخالط الناس

ويصبر علىٰ أذاهم، وهو الذي يفوز بكرامة الدارين، والذي يقول تعالىٰ فيه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٣]، وهو المعنيّ بحديث: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم خير . . .)؟

وإنما حصل له الأذىٰ لأنه جاء بمثل ما جاء به المرسلون . . لا يداهن أهل الباطل ولا يركن إليهم أو يرضىٰ بباطلهم بل يتبرأ منهم ويظهر العداوة لهم ويهجر كل ما يعينهم علىٰ باطلهم من منصب ووظيفة أو عمل أو طريق، ومن كانت هذه حاله لا يأثم بإقامته في مجتمعاتهم وديارهم ولا تجب عليه الهجرة من أي بلد كان. يقول الشيخ حمد بن عتيق في الدرر السنية عند كلامه علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [المُمتَحنَة: ٤] الآية، ومعنىٰ قوله: ﴿بَدَا﴾ أي ظهر وبان والمراد التصريح باستمرار العداوة والبغضاء لمن يوحد ربّه، فمن حقق ذلك علمًا وعملًا وصرح به حتىٰ يعلمه منه أهل بلده لم تجب عليه الهجرة من أي بلد كان، وأما من لم يكن كذلك بل ظن أنه إذا تُرك يصلي ويصوم ويحج سقطت عنه الهجرة، فهذا من الجهل بالدين وغفول عن زبدة رسالة المرسلين) اهـ. ص١٩٩ من جزء الجهاد وهذا القسم من الناس إذا صدع بالحق وهُدّد بالقتل والتعذيب وليس ثَمّ بلد يهاجر إليها فله أسوة حسنة في أهل الكهف الذين شحّوا بدينهم وفرّوا به إلىٰ الجبال . . وأسوة أخرىٰ بأصحاب الأخدود الذين حرقوا في سبيل عقيدتهم وتوحيدهم وما

وهنوا وما استكانوا .. وأسوة بأصحاب النبي الذين هاجروا وجاهدوا وقاتلوا وقتلوا وكفىٰ بربك هاديًا ونصيرًا.

ولولاهم كادت تميد بأهلها
ولكن رواسيها وأوتادها هم
ولولاهم كانت ظلامًا بأهلها
ولكن هم فيها بدورٌ وأنجم

* أو رجل أقل منزلة من الأول لا يقدر علىٰ هذه الطريق المحفوفة بالمكاره، ويخاف علىٰ دينه ولا يطيق الصدع بذلك .. فهو يعتزل بغنيمات له يتبع بهن مواقع القطر وشعب الجبال يعبد الله ويفر بدينه من الفتن ..

* أو رجل مستضعف مغلق عليه بيته مقبل علىٰ خاصة أمره يسعىٰ في نجاتهم ووقايتهم من الشرك وأهله ومن نار وقودها الناس والحجارة .. يتجنب الكفار ويعرض عنهم، ولا يظهر الرضىٰ عن باطلهم ولا يؤيده بأي صورة من الصور .. ولا بد لهذا من أجل سلامة توحيده. أن يبقىٰ قلبه مطمئنًا بالعداوة والبغضاء للشرك والمشركين ينتظر زوال المانع .. ويتحين الفرص للفرار بدينه والهجرة إلىٰ بلد أهون شرًا .. يظهر بها دينه، كهجرة المهاجرين إلىٰ الحبشة.

* أو آخر مظهر للرضىٰ عن أهل الباطل مداهن لإفكهم

وضلالهم فهذا له ثلاث حالات ذكرها الشيخ ابن عتيق في سبيل النجاة والفكاك ص٦٢ فقال:

«الحالة الأولىٰ: أن يوافقهم في الظاهر والباطن فهذا كافر خارج من الإسلام. سواء أكان مكرهًا أم غير مكره، فهو ممن قال الله فيه: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النَّحل: ١٠٦].

الحالة الثانية: أن يوافقهم ويميل إليهم في الباطن، مع مخالفتهم في الظاهر، فهذا ً كافر أيضًا، وهم المنافقون.

الحالة الثالثة أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن وهو علىٰ وجهين: أحدهما: أن يفعل ذلك لكونه في سلطانهم مع ضربهم وتقييدهم له وتهديده بالقتل، فإنه والحالة هذه يجوز له موافقتهم في الظاهر مع كون قلبه مطمئنًا بالإيمان كما جرىٰ لعمّار قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النَّحل: ١٠٦]».

قلت: وينبغي لمثل هذا كما قدمنا أن يسعىٰ دومًا مثل المستضعفين من أصحاب النبي ﷺ للفرار بدينه ويدعو دومًا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٧٥].

ثم قال: (الوجه الثاني: أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن، وهو ليس في سلطانهم، وإنما حمله علىٰ ذلك إما

طمع في رئاسة أو مال أو مشحة بوطن أو عيال أو خوف مما يحدث في المال[١] فإنه في هذه الحالة يكون مرتدًا ولا ينفعه كراهته لهم في الباطن وهو ممن قال الله فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، فأخبر أنه لم يحملهم علىٰ الكفر الجهل أو بغضه، ولا محبة الباطل، وإنما هو أن لهم حظًا من حظوظ الدنيا آثروه علىٰ الدين . . قال: وهذا معنىٰ كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ).

* قلت: معنىٰ كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي أشار إليه ابن عتيق موجود في مواضع كثيرة من كتبه ورسائله، من ذلك علىٰ سبيل المثال قوله ص٤٢ في مجموعة الرسائل النجدية: (اعلم أن الأدلة علىٰ تكفير المسلم الصالح إذا أشرك بالله أو صار مع المشركين علىٰ الموحدين ولم يشرك، أكثر من أن تحصىٰ من كلام الله وكلام رسوله وكلام العلماء. وأنا أذكر لك آية من كلام الله أجمع أهل العلم علىٰ تفسيرها وأنها في المسلمين وأن الرجل إذا قال ذلك فهو كافر في أي زمان كان، قال الله تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ

(١) هذا ينطبق في زماننا علىٰ من تقلد الوظائف الشركية والأعمال الكفرية طمعا في المال والمنصب والجاه كمن يدعي بغضهم في السر وهو يتولىٰ مناصب كفرية كالقضاء الوضعي والحكم بغير ما أنزل الله وكما يدعيه بعض جندهم وأنصارهم

بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] الآية، وفيها ذكر أنهم استحبوا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، فإذا كان العلماء ذكروا أنها نزلت في الصحابة لما فتنهم أهل مكة وذكروا أن الصحابي إذا تكلم بكلام الشرك بلسانه مع بغضه لذلك وعداوة أهله لكن خوفًا منهم فهو كافر بعد إيمانه).

وهو مطابق لكلام الشيخ ابن عتيق السابق وكلام الشيخ سليمان الآتي بعده . . وهو كلام خطير، أعلم علم اليقين بأنه لو كان من كلامنا وليس من كلام هؤلاء الأئمة الأعلام لقيل: خوارج وتكفير . . مع أن الآية نص واضح عليه . . وهذه القضية تختلف عن قضية الإكراه علىٰ كلمة الكفر التي يُعذر صاحبها، فنحن هاهنا مع أناس لم يُكرهوا ولم يُضربوا ولم يُعذبوا وإنما حملهم علىٰ إظهار الموافقة والولاء للمشركين، حب الدنيا والخوف عليها والطمع بالمال والمشحة بالمسكن (والأرض والقرض كما يقولون) فهو استحباب للحياة الدنيا علىٰ الآخرة واشتراء لمتاعها الزائل ببذل الدين والتوحيد والعقيدة . . ربما تستروا مع ذلك بالإكراه وادعوا الضرورات وليسوا في الحقيقة من أهلها، لذا قال تعالىٰ في سورة آل عمران بعدما نهىٰ عن موالاة أعدائه وأباح التقية للمكره الحقيقي، قال محذّرًا: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ . . .﴾ [آل عمران: ٢٨-٢٩]، وقال في الآية التي تلتها مباشرة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ

أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وهـذا مـن أعـظـم الوعيد والتهديد لمن تدبّر كتاب الله وعقله .. ولكن من يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا .. ذلك أن كثيرًا ممن لاخلاق لهم يتعذّرون بالإكراه وليسوا من أهله .. وقد ذكر العلماء شروطًا لصحة الإكراه منها:

- أن يكون المكره (بكسر الراء) قادرًا علىٰ إيقاع ما يُهدد به، والمأمور المكرَه عاجزًا عن الدفع ولو بالفرار ..

- أن يغلب علىٰ ظنّه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

- أن يكون ما هُدّد به فوريًا، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غدًا، لا يعد مكرهًا.

- أن لا يظهر من المأمور ما يدل علىٰ تماديه بأن يعمل زيادة علىٰ ما يمكن أن يزول به عنه البلاء.

* كما فرّقوا فيما يُهدّد به المكره ويُخوّف بين الإكراه علىٰ المعاصي، وبين الإكراه علىٰ قول كلمة الكفر أو موالاة الكفار وأمثاله، فلم يُجوّزوا الثاني إلا لمن عُذّب عذابًا لا طاقة له به، وذكروا القتل والتحريق بالنار وقطع الأعضاء والتخليد في السجن وأمثال ذلك، وعمار رضي الله عنه هو الذي نزلت بسببه آيات التقية، ومعروف أنه لم يقل ما قال إلا بعدما رأىٰ مقتل أمه وأبيه، وبعدما ذاق من العذاب ألوانًا، فكسرت ضلوعه وأوذي في الله أذىٰ شديدًا .. وأكثر هؤلاء المتعذّرين بالتقية ممن أوضعوا في الفتنة

وغرقوا في الباطل والشرك لم ينلهم عشر معشار ما ناله . . ولكن كما قلنا سابقًا؛ من يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا . .

أضف إلىٰ هذا أن أهل العلم يذكرون مع ذلك في أبواب الإكراه علىٰ كلمة الكفر؛ أن الأخذ بالعزيمة والصبر علىٰ الأذىٰ واحتساب الأجر عند الله تعالىٰ أعظم وأفضل، وهذه مواقف الصحابة وتابعيهم والأئمة شاهدة بذلك فبأمثال هذه المواقف يكون إظهار الدين وإعزازه، وانظر صحيح البخاري باب (من اختار الضرب والقتل والهوان علىٰ الكفر) والشواهد في ذلك كثيرة وكذا مواقف الأئمة أكثر من أن تحصىٰ كموقف الإمام أحمد في فتنة خلق القرآن وغيرها كثير . . .

ويذكرون قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

كما يذكرون أن التخيير ينافي الإكراه وذلك كحال شعيب عليه السلام مع قومه إذ خيّروه بين العودة إلىٰ الكفر أو الخروج من قريتهم، ولم يجوّزوا لذلك الاستجابة وإظهار الكفر في هذه الحالة. وإنما سردنا هذا كله ليعلم من وهبه الله نعمة العقل والتوحيد غربة هذا الدين في زماننا وغربة دعاته وأهله الذين يعرفونه حق المعرفة . . . وأن أكثر الناس اليوم قد دخلوا في دين الحكومات ودين الطواغيت مختارين بلا إكراه حقيقي، وإنما استحبابًا للحياة الدنيا ومساكنها وأموالها ومتاعها ومناصبها علىٰ

دين الله، وبذلوه وباعوه بأبخس الأثمان، فإياك أن تكون منهم فتصبح من النادمين . .

* وبهذا وأمثاله يزول ما قد يستغربه ويستهجنه كثير من الناس من قول الشيخ ابن عتيق هذا فيمن وافق المشركين في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن وهو ليس في سلطانهم وإنما حمله علىٰ ذلك ما ذكر من الدنيا وليس الإكراه . . وقوله: «مع مخالفته لهم في الباطن» يقصد به والله أعلم: (بحسب زعمه) وإلا فكيف نعلم ونطلع علىٰ حقيقة باطنه في حاله تلك، إلا عن طريق الوحي كما في قصة حاطب بن أبي بلتعة . . والله ﷻ لم يكلفنا بالبواطن بل نحكم بالظاهر . . فكما أننا نكف سيوفنا عمّن أبطن النفاق وأبدىٰ موالاة الإسلام وأظهر شعائره، فكذلك نُعملها في هامِ من أظهر موالاة الكفار وشايعهم وانحاز لهم، وإن زعم أنه يبطن الإسلام . . فالله ﷻ تعبّدنا في أحكام الدنيا بالظواهر وهو وحده سبحانه الذي يتولىٰ السرائر ويعلم الصادق من الكاذب، فيحاسب الناس علىٰ أعمالهم ويبعثهم علىٰ نياتهم كما في حديث أم المؤمنين المتفق عليه في الجيش الذي يُخسف به وفيه المستبصر والمجبور، فيهلكهم الله جميعًا في الدنيا ويبعثهم علىٰ نياتهم يوم القيامة . . . وهذا معنىٰ قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما في صحيح البخاري: (إن أناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ فمن أظهر لنا خيرًا أمّنّاه وقربناه وليس إلينا من

سريرته شيء الله يحاسب سريرته. ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنْه ولم نُصدّقه وإن قال إن سريرته حسنة).

وهكذا كان أمر النبي ﷺ في تعاملاته مع الناس في الحروب وغيرها، فها هو العباس بن عبد المطلب وقد كان يدّعي الإسلام وينتسب إليه، انظر علىٰ سبيل المثال (٨٨ و٨٩ و٩١/ ٦) من مجمع الزوائد، و(ص٢٤٢-٢٤٦/ ٤) من مشكل الآثار وغيره . . ولكنه بقي في مكة وهي دار كفر آنذاك ولم يهاجر إلىٰ دار الإسلام وخرج مع المشركين يوم بدر، فأسره المسلمون وعاملوه علىٰ ظاهره لا بما زعمه وادعاه من إبطان الإسلام، لأنه خرج في صفوف المشركين يكثر سوادهم، وروي أنه زعم أنه كان مكرهًا في الخروج معهم كما في بعض الآثار المشار إليها آنفًا، وفي بعضها أن النبي ﷺ قال له عندما رآه يتعذّر بالإكراه ويدعي الإسلام: (الله أعلم بشأنك إن يك ما تدعي حقًا فالله يجزيك بذلك، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك. .) رواه الإمام أحمد ورجاله ثقات، إلا أن فيه راوٍ لم يُسم، وعلىٰ كل حال يكفينا في هذا ما هو ثابت في صحيح البخاري وغيره، من أن النبي ﷺ عامله بظاهر أمره ولم يطلقه إلا بعدما فدىٰ نفسه كبقية الأسرىٰ المشركين . . ولعل من هذا الباب أيضًا ما جاء في صحيح مسلم من حديث عمران بن حصين في قصة الرجل من بني عقيل الذي كان من حلفاء ثقيف أسر ولم يطلقه النبي ﷺ رغم

ادعائه الإسلام، انظره في مختصر المنذري تحت رقم (١٠٠٨) . .

فعلم من هذا كله أننا مكلفون في معاملاتنا وأحكامنا في الدنيا بالظاهر دون الباطن، وهذا من فضل الله ﷻ علينا وإلا لأمسىٰ الإسلام وأهله ألعوبة وأضحوكة لكل جاسوس وخبيث وزنديق. ومن هذا الباب قصة حاطب وما كان من صنيعه عام الفتح . . فالأصل أن يُحكم علىٰ ظاهر من عمل مثل عمله بالكفر وأن يجري المسلمون عليه ما يستوجب ظاهره من الأحكام في الدنيا كالقتل والأسر، ومن طالع حال المرتدين وأقسامهم وبعض حججهم وتأويلاتهم، وحجج من خُدع منهم بشهود الرجال علىٰ نبوة مسيلمة وقصة ثمامة واليشكري وما إلىٰ ذلك . . وكيف أن الصديق عاملهم جميعًا بالظاهر. فأعمل فيهم القتل والأسر . . وأن هذا كان من أعظم فضائله ومناقبه وحسناته؛ عرف صحة ما نقصده ونرمي إليه، ويراجع في ذلك كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ فهو كثير في هذا الباب . . انظر علىٰ سبيل المثال المواضيع الستة التي ذكرها في مقدمة السيرة وغيرها كثير . . وهذا هو تمامًا ما فهمه عمر رضي الله عنه في قصة حاطب وصرّح به في حضرة النبي ﷺ، ومعلوم أن النبي ﷺ لم ينكر علىٰ عمر هذا الفهم، ولا قال له ﷺ في ذلك المقام: (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما)، بل أقر حكمه ولم ينكره فيمن ليس له مانع كمانع حاطب، وزكىٰ لنا باطن حاطب بقوله: (وما

يدريك لعل الله قد اطّلع علىٰ أهل بدر..) إلخ، وقد قال حاطب رضي الله عنه كما جاء في البخاري وغيره: (ما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضىٰ بالكفر بعد الإسلام) فقال ﷺ مزكيًا له: (قد صدقكم).. والمبادرة إلىٰ هذا القول منه رضي الله عنه من أظهر الأدلة علىٰ أن الصحابة قد كان مستقرًا في نفوسهم أن الأصل في ظاهر هذا العمل أن يكون ردّة وكفرًا .. وفي رواية أبي يعلىٰ وأحمد قال: (أما إني لم أفعله غشًا لرسول الله ﷺ ولا نفاقًا، قد علمت أن الله مظهر رسوله ومتم له نوره) وفي رواية أخرىٰ لهما أيضًا: (أما والله يا رسول الله ما تغيّر الإيمان من قلبي..) انظر مجمع الزوائد (٩/٣٠٦) وتأمل قول النبي ﷺ في رواية البخاري: (قد صدقكم) فهذا الصحابي البدري قد استثناه النبي ﷺ وزكّاه وشهد بصدق سريرته وباطنه وأنه لم يفعل ذلك ردة وكفرًا بل كانت منه كبيرة من كبائر الذنوب اغتفرت في مقابل كونه بدريًا .. فهل في المهوّنين من شأن موالاة الكفار المتنطعين بقصة حاطب هل فيهم اليوم علىٰ وجه الأرض بدريًا اطلع الله علىٰ قلبه، ليجعلوا هذا الفعل كبيرة علىٰ الإطلاق ويتهاونوا فيه ويتساقطوا تساقطًا..؟؟

ولا نسأل هذا السؤال إلا بعد أن نعلم صدق سرائرهم وأنهم ما فعلوه ردةً ولا كفرًا .. ودون ذلك خرط القتاد .. فمن أين لنا أن نعلم بعد انقطاع الوحي صدق سرائرهم وبواطنهم ومن يزكيهم ويشهد لنا بعد رسول الله ﷺ بذلك. فهذا مانع من موانع الكفر الباطنة غير الظاهرة، ولا نكلف به بعد انقطاع الوحي، لأجل ذلك

كان الأصل فيمن أظهر الركون إلىٰ الكفار وموافقتهم وموالاتهم أن نحكم عليه بظاهره كما تقدم والله يتولىٰ السرائر إن كان علىٰ غير ذلك، ويُبعث علىٰ نيته إن قتله المسلمون في صفوف الكفار، وإن أسر تجري عليه أحكام الكفار كما تقدم، والمسلمون معذورون في قتل من أظهر مثل هذا وإن ادعىٰ وزعم أنه يبطن الإسلام وموالاة أهله، وانظر في هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ حول الجيش الذي يغزو الكعبة فيخسف به، وقصة أسر العباس يوم بدر وادعائه الإسلام .. في مجموع الفتاوىٰ (٢٨/٥٣٧) وكذا كلام تلميذه العلامة ابن القيم في الزاد (٣/٤٢٢) وغيرهما من العلماء المحققين .. وتأمل كذلك سبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النِّسَاءِ: ٩٧] ارجع إليه في صحيح البخاري وغيره فإنه مفيد في هذا الباب أيضًا .. انشط وتأمل ذلك كله وانفض غبار النوم عن عينيك ولا تكن مع الكسالىٰ المقلدين ..

* وأخيرًا فقد ذكر الحافظ في الفتح (٧/٥٢١) عن بعض أهل المغازي قال وهو في (تفسير يحيىٰ بن سلام) أن لفظ كتاب حاطب كان: (أما بعد يا معشر قريش، فإن رسول الله ﷺ قد جاءكم بجيش كالليل يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم والسلام) وكذا حكاه السهيلي.

قلت: فلو تأمل العاقل كتاب حاطب هذا وما فيه من ثقته بنصر الله لنبيه ﷺ وتعظيمه من شأنه، ومع ذلك فقد أنزل الله تعالىٰ بسبب فعلته هذه آيات عظيمات تقشعر منها جلود الذين آمنوا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المُمْتَحَنَة: ١]، فلو تأملت هذا هداك الله، وكيف شدّد الله تعالىٰ فيه وجعله من موالاة ومودة أعدائه .. ثم نظرت في أحوال كثير من المنتسبين للدعوة والإسلام في هذا الزمان، وما يقع منهم من مباركة ومداهنة بل ومناصرة ومؤازرة عبيد القانون وأذناب الفرنجة وأعداء الشريعة والتوحيد، وما يظهروه من موالاة دساتيرهم وحكوماتهم والقسم علىٰ احترام قوانينهم؛ لعرفت غربة الدين الحقيقة، وغربة أهله العارفين له حق المعرفة وندرتهم فإياك والتفريط بالدين، إياك .. إياك.

قال الشيخ حمد بن عتيق: (وأمّا ما يعتقده كثير من الناس عذرًا، فإنه من تزيين الشيطان وتسويله وذلك أن بعضهم إذا خوّفه أولياء الشيطان خوفًا لا حقيقة له ظنّ أنه يجوز له إظهار الموافقة للمشركين والانقياد لهم .. إلخ). ثم ذكر كلامًا لشيخ الإسلام ابن تيمية في صفة الإكراه علىٰ كلمة الكفر وأنه لا يكون إلا بالضرب والتعذيب والقتل لا بمجرد الكلام ولا بالتخويف

بالحيلولة دونه ودون زوجته أو ماله أو أهله . . . ثم قال رحمه الله تعالىٰ: (فإذا علمت ذلك وعرفت ما وقع من كثير من الناس تبين لك قول النبي ﷺ: (بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ) وقد عاد غريبًا، وأغرب منه من يعرفه علىٰ الحقيقة، وبالله التوفيق) اهـ من «سبيل النجاة» الموضع نفسه.

* ويقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (صاحب كتاب تيسير العزيز الحميد) في مقدمة رسالة (حكم موالاة أهل الإشراك): (اعلم رحمك الله أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة علىٰ دينهم خوفًا منهم، ومداراة لهم، ومداهنة لدفع شرهم، فإنه كافر مثلهم وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين . . .).

ثم ذكر ما هو أشد من ذلك من مناصرة المشركين بالمال وموالاتهم وقطع موالاة المسلمين . . إلىٰ أن قال: (ولا يُستثنىٰ من ذلك إلا المكره وهو الذي يستولي عليه المشركون، فيقولون له: اكفر، أو افعل كذا، وإلا فعلنا بك وقتلناك، أو يأخذونه فيعذبونه حتىٰ يوافقهم، فيجوز له الموافقة باللسان مع طمأنينة القلب بالإيمان. وقد أجمع العلماء علىٰ أن من تكلم بالكفر هازلًا، أنه يكفر، فكيف بمن أظهر الكفر خوفًا وطمعًا في الدنيا؟!) اهـ. ثم أخذ بسرد أكثر من عشرين دليلًا علىٰ ذلك . . ولذلك اشتهر كتابه باسم (الدلائل) فليتأمل ذلك كله المنتسبون إلىٰ

الدعوة ممن يظهرون موالاة عبيد الياسق وموافقتهم وينافحون عنهم وعن قوانينهم وحكوماتهم وجيوشهم .. وليتدبروه .. فإنه يهمهم جدًا، خصوصًا، إذا علموا أنه كله مُنصبٌ علىٰ عساكر الدولة المصرية حينما دخلوا نجدًا في عهد الشيخ حمد بن عتيق والشيخ سليمان رحمهما الله، حيث صنفا كتاب (سبيل النجاة والفكاك) وكتاب (الدلائل) في ذلك الوقت لتحذير الناس من موالاة أولئك العساكر الذين كانوا يتشبثون بكثير من البدع والخرافات وشركيات القبور، انظر ص٣٠٩ وغيرها من جزء الجهاد من كتاب الدرر السنية .. ومن المعلوم عن علماء نجد المشاهير من أولاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه في ذلك الزمان أنهم كانوا يكفرون الدولة المصرية وعساكرها التابعين للدولة التركية كما هو مشهور في كثير من رسائلهم، بل يكفرون كل من والاهم أو دخل في طاعتهم ورضي عنهم واتخذهم وليجة من دون المؤمنين .. والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح الآن: إذا كان هذا حكم أولئك الأئمة الأعلام في العساكر التابعين للدولة التي يتباكىٰ عليها وعلىٰ أيامها أكثر مسلمي هذا الزمان .. وإذا كانت هذه مصنفاتهم فيمن والاها وأحبها أو أحب ظهورها .. فماذا تراه يكون قولهم في عبيد الياسق العصري؟؟

وبماذا كانوا سيحكمون علىٰ من أظهر الولاء لهم ولجيوشهم وشرطتهم خوفًا من الحرمان من المساكن والقسائم أو الوظائف أو غير ذلك من قشور الدنيا ومتاعها؟؟ وبماذا كانوا سيحكمون

علىٰ من أقسم علىٰ الإخلاص لهم أو علىٰ احترام قوانينهم . . لو أنهم أدركوا هذا الزمان؟؟؟

«فالحذر الحذر أيها العاقلون والتوبة التوبة أيها الغافلون فإن الفتنة حصلت في أصل الدين لا في فروعه، ولا في الدنيا، فيجب أن تكون العشيرة والأزواج والأموال والتجارة والمساكن وقاية للدين وفداءً عنه، ولا يُجعل الدين فداءً عنها ووقاية لها قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، فتفطن لها وتأملها فإن الله أوجب أن يكون الله ورسوله والجهاد أحب من تلك الثمانية كلها، فضلًا عن واحدة منها أو أكثر، أو شيء دونها مما هو أحقر، فليكن الدين عندك أغلىٰ الأشياء وأعلاها . . .» اهـ. من الدرر ص١٢٧ جزء الجهاد.

❁ ❁ ❁

فصل

من أساليب الطغاة لتمييع ملة إبراهيم وقتلها في نفوس الدعاة

وبعد .. فإذا كنت قد فهمت ملة إبراهيم فهمًا جيدًا .. وعلمت أنها منهج الرسل وأتباعهم .. وأنها طريق النصر والفوز والسعادة في الدارين .. فلتعلم بعد ذلك علم اليقين أن الطغاة في كل زمان لا يرضون عنها، بل يخافون هذه الملّة العظيمة ويخشونها .. ويحرصون كل الحرص علىٰ قتلها ونزعها من نفوس الدّعاة بشتىٰ الحيل والأساليب ..

كما أخبر تعالىٰ بذلك عنهم منذ القديم فقال في سورة القلم وهي مكية: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القَلَمِ: ٩]. فهم يتمنّون أن يسلك الدّعاة غيرها من السبل المعوجّة وينحرفوا عن دعوة الأنبياء الصلبة المستقيمة .. ولا يزالون يخطّطون لأجل حرف الدعاة عن هذا الصراط المستقيم .. إلىٰ سبل فيها سكوت عن كثير من باطلهم، تُرضي خواطرهم .. أو تلتقي معهم في بعض أمورهم .. هكذا .. حتىٰ تموت الدعوة وتتميع قضيتها وينحرف دعاتها عن خطها الواضح البيّن المستقيم فالطّغاة يعلمون أن أول التقهقر خطوة إلىٰ الوراء .. ثم تعقب هذه الخطوة، خطوات

وخطوات . . ينسىٰ معها الدعاة منهج الدعوة الأصيل . . ويحصل يقينًا من هذا الانحراف . . التقاء مع أهل الباطل في كثير من باطلهم أو بعضه . . وذلك غاية ما يتمنونه ابتداء . . لذلك فإنهم إن يروا من هؤلاء الدعاة تنازلًا أو تقهقرًا . . أظهروا لهم الرضىٰ عنهم وعن دعواتهم، وقربوهم وأثنوا علىٰ جهودهم وأظهروا لهم الود والحب . . قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية بعد أن ذكر محاولات المشركين لمساومة الرسول ﷺ علىٰ كثير من أمور دينه ودعوته ومن ذلك: ترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم إلىٰ غير ذلك . . يقول: «هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله، وهي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائمًا، محاولة إغرائهم لينحرفوا ولو قليلًا عن استقامة الدعوة وصلابتها. ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثير. ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرىٰ الأمر هينًا. فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق. وقد يدخل الشيطان علىٰ حامل الدعوة من هذه الثغرة، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها! ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلىٰ الانحراف الكامل في نهاية الطريق، وصاحب الدعوة الذي يقبل

التسليم في جزء منها ولو يسير، وفي إغفال طرف منها ولو بضئيل، لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة .. لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلىٰ الوراء! وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات، فإذا سلموا في الجزء، فقدوا هيبتهم وحصانتهم، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة، وارتفاع السعر ينتهيان لكسب أصحاب السلطان إلىٰ صفها، هو هزيمة روحية بالاعتماد علىٰ أصحاب السلطان في نصر الدعوة. والله وحده هو الذي يعتمد عليه المؤمنون بدعوتهم .. ومتىٰ دبّت الهزيمة في أعماق السريرة، فلن تنقلب الهزيمة نصرًا!» اهـ.

نعم .. وإننا لنرىٰ كثيرًا من دعاة اليوم قد اتخذهم الطغاة أخلاّء، فهم لا يضرونهم أو يعادونهم .. لأن أولئك الدعاة قد أظهروا الرضىٰ عن كثير من باطلهم فالتقوا معهم في منتصف الطريق .. وجالسوهم في الندوات والحفلات والهلكات.

ومن أمثلة هذه الأساليب في واقعنا المعاصر..:

* ما أشرنا إليه مما يؤسسه كثير من الطواغيت من برلمانات ومجالس أمة وأشباهها .. ليجمعوا فيها خصومهم من الدعاة وغيرهم فيجالسونهم فيها ويقاعدونهم ويختلطون بهم حتىٰ يميعوا القضية بينهم، فلا تعود المسألة مسألة براءة منهم أو كفر بقوانينهم ودساتيرهم أو انخلاع من باطلهم كله .. بل تعاون وتآزر

ومناصحة وجلوس علىٰ طاولة الحوار لأجل صالح البلاد واقتصادها وأمنها و . . . و . . . و . . . لأجل الوطن الذي يتحكم به الطاغوت ويحكمه بأهوائه وكفرياته. .، وهذه مزلة عايشنا أهلها ورأينا أكثرهم ممن ينتسبون إلىٰ منهج السلف أو يتمسحون بكلام سيد قطب وأمثاله . . ومع ذلك أمسوا بعد سقوطهم في هذه المزلة يصفقون للطواغيت ويقومون لهم إجلالًا واحترامًا ويخاطبونهم بألقابهم بل وينادون بالولاء لحكوماتهم وجيوشهم وأمنهم . . ويقسمون علىٰ احترام دساتيرهم وقوانينهم . . وغير ذلك . . فماذا أبقوا لدعواتهم؟ نعوذ بالله من الضلال . .

* ومن ذلك أيضًا ما يلجأ إليه كثير من هؤلاء الطواغيت من تجنيد العلماء وشغل أوقاتهم لصالحهم في محاربة خصومهم ومن يخافونهم علىٰ أنظمتهم وحكوماتهم كالشيوعيين مثلًا أو الشيعة أو غيرهم ممن يهددونهم ويهددون حكمهم . . فيلجأ الطاغوت إلىٰ بعض هؤلاء العلماء المتحمسين المبغضين لتلك الاتجاهات الضالة . . فيعينهم علىٰ أولئك الأعداء المشتركين ويخادع هؤلاء العلماء بإظهار حرصه علىٰ الدين وعلىٰ أهله وتخوفه من أولئك علىٰ حرمات المسلمين، ويمدهم بالعون والدعم المادي والمعنوي لمحاربة أولئك . . فيسقط هؤلاء المساكين بحبائله ويضيعون أعمارهم وأوقاتهم ودعواتهم في نصرة عدو علىٰ عدو . . بل يصل الحال بكثير منهم بأن يلغوا عداوتهم للطاغوت القريب ويصادقونه

بل ربما أصبحوا في يوم من الأيام جندًا وأعوانًا مخلصين له ولحكومته .. يكرسون حياتهم في خدمته وتثبيت عرشه وحكمه ودولته .. شعروا أو من حيث لا يشعرون .. وليتهم عقلوا قولة العبد الصالح: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، فقد نقل القرطبي في هذه الآية عن بعض الروايات «أن الإسرائيلي الذي استنصر موسىٰ كان كافرًا وإنما قيل له من شيعته لأنه كان إسرائيليًا ولم يُرد الموافقة في الدين .. فعلىٰ هذا ندم لأنه أعان كافرًا علىٰ كافر، فقال: «لا أكون بعدها ظهيرًا للكافرين» وظهيرًا: أي معينًا. وليتهم عقلوا قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]. إذًا لما وقعوا فيما وقعوا فيه .. فإن أولئك الشيوعيين أو غيرهم وإن كانوا أعداء للإسلام وأهله .. وعداوتهم والبراءة منهم والكفر بباطلهم مطلوبة أيضًا .. إلا أن البدء بالأهم فالأهم والأقرب فالأقرب أمر مقرر ومعروف في سيرة نبينا محمد ﷺ، بل وتأبىٰ العقول السليمة خلافه، ذلك لأن خطر الأقرب المباشر وتأثيره وفساده وفتنته أعظم وأشد من البعيد، أو القريب غير المباشر، ولذا كانت مجاهدة النفس والشيطان قبل مجاهدة الأعداء عمومًا .. وما كان رسول الله ﷺ ليبدأ أول ما بدأ بفارس والروم أو باليهود، ويتغافل عمن هو بين ظهرانيهم.

* بل ربما استغل كثير من الطواغيت هذا المزلق الخطير .. وسخروا كثيرًا من هؤلاء العلماء الجهلاء .. في الصد عن كثير

من الدعاة والتنفير من جماعاتهم الإسلامية ممن هم خصوم لأولئك العلماء في الدعوة إلىٰ الله أو في المذهب أو المنهج . . أو غير ذلك . . . بل ربما استخلصوا منهم الفتاوىٰ لقمعهم والقضاء عليهم وعلىٰ دعواتهم بحجة أنهم من الخوارج أو البغاة المارقين المفسدين في الأرض . . ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ وهم يعلمون ويشعرون . . ولقد شاهدنا هذه المزلة كثيرًا في أهل زماننا وإلىٰ الله المشتكىٰ . . وما درىٰ أولئك العلماء المساكين أو إخوانهم الدعاة مهما بلغوا من الانحراف . . فإنه انحراف عن جهل أو تأويل . . بل حتىٰ لو كان عن علم وإصرار، فلن يبلغ مبلغ انحراف الطواغيت ومحادتهم لله ولدينه . .

❊ ومن ذلك أيضًا إغراء المؤمنين والدعاة بالمناصب والمراكز والوظائف والألقاب . . ومنحهم الامتيازات والأموال والمساكن، والإغداق عليهم بالخيرات وغير ذلك. حتىٰ يقيدوهم ويثقلوهم ويقفلوا أفواههم بها . . ويحققوا معهم قول قائلهم: (الثدي الذي يرضعك لا تعضه) وهكذا إلىٰ أن يفتتن بهم هؤلاء الدعاة أو أولئك العلماء ويفتنون بحكوماتهم، حتىٰ يصل بهم الحال إلىٰ أن يرقعوا باطل أولئك الطغاة بفتاويهم المختلفة . . وبترديدهم لأفضالهم وتسبيحهم بحمدهم ليل نهار . . .

يقول ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص١٢١: (ومن تلبيس إبليس علىٰ الفقهاء، مخالطتهم الأمراء والسلاطين ومداهنتهم وترك

الإنكار عليهم مع القدرة علىٰ ذلك). وقال ص١٢٢: (وفي الجملة، فالدخول علىٰ السلاطين خطر عظيم لأن النية قد تحسن في أول الدخول ثم تتغير بإكرامهم وإنعامهم أو بالطمع فيهم، ولا يتماسك عن مداهنتهم وترك الإنكار عليهم، وقد كان سفيان الثوري رضي الله عنه يقول: «ما أخاف من إهانتهم لي، إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم) اهـ.

ولو تفكر العاقل في أولئك الذين كان يخاف سفيان أن يميل قلبه إليهم .. لوجد البون بينهم وبين طغاة زماننا واسعًا شاسعًا .. فالله المستعان .. ورحم الله من قال:

لا شيء أخسر صفقة من عالم
لعبت به الدنيا مع الجهال
فغدا يفرق دينه أيدي سبا
ويزيله حرصًا لجمع المال
من لا يراقب ربه ويجله
تبت يداه وماله من والِ

* ومنه أيضًا إظهار بعض هؤلاء الطواغيت حرصهم علىٰ جوانب وفروع من الدين والدعوة إليها ليستقطبوا بذلك كثيرًا من الدعاة والعلماء الذين يخافون من إخلاصهم، وحب الناس لهم، فيؤسسون لهم معاهد ودورًا وإذاعات ويشغلونهم بوزارات الأوقاف

ومشاريعها وموسوعاتها وغير ذلك مما لا يمس طغيان هؤلاء الطواغيت وفسادهم . .

ومن قبيل ذلك أيضًا روابط ومؤسسات الضرار التي يؤسسها هؤلاء الطواغيت . . كرابطة العالم الإسلامي التي انخدع بها كثير من علمائنا المساكين رغم خطها المكشوف الأسود المداهن لكثير من الحكومات الفاسدة عمومًا، وللحكومة السعودية وطواغيتها خصوصًا . . حتىٰ لقلما تخلو نشرة أو كتاب من مطبوعاتهم إلا ويطفح بالتملق والنفاق لتلك الدولة . . ناهيك عن علاقاتها وعلاقات مسؤوليها المشبوهة مع طواغيت الدول المختلفة الأخرىٰ . . . وخلافها وانتقادها لبعض تلك الدول إنما يكون تبعًا لأهواء دولتها الأم . . فإذا كانت الأمور بين الطواغيت علىٰ ما يرام فهي كذلك عندها . . وإذا هاجم طاغوت كالقذافي مثلًا دولتها أو طواغيتها وسياستهم فإن الفتاوىٰ والاستنكارات تتابع وتنهال . . ثم إذا رجعت الأمور إلىٰ حالها الأول بين الطواغيت، هدأت وخرست تلك الفتاوىٰ وما عدنا نسمع لها حسًا . . مع أن الطاغوت هو هو . . ما تغير وما تبدل بل ربما أصبحت حاله أشد وأنكىٰ مما مضىٰ . . . ولو رأوه بأعينهم يطوف بالبيت بنجسه وطغيانه . . لما حركوا ساكنًا . . فإلىٰ الله المشتكىٰ . . وعلىٰ كل

حال فهذه المؤسسة وأمثالها لن تعدو كونها مؤسسة حكومية ولقد اعتدنا ألا نثق بما يأتي من الحكومات . . ونعمت العادة[١] .

* ومنه أيضًا ما يمنحونه لكثير من الدعاة من أذون وتراخيص للدعوة والخطابة وما ينشئونه من (هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) التي تعمل علىٰ استيعاب واحتواء الدعاة المتحمسين وصدهم عن منكرات الحكومة وسياساتها وباطلها وفساد طواغيتها الكبير . . بشغلهم ببعض منكرات العامة . . خاصة تلك المنكرات التي قد تهدد أمن الدولة واستقرار حكم الطواغيت . . ولن يتعدوها إلىٰ مستويات أعلىٰ وأعظم ما داموا قد ربطوا أنفسهم بتلك الهيئات أو ذلك الإذن الذي يتحكم فيهم وفي دعواتهم . . ويشدهم شدًا . .

* ومن ذلك أيضًا تدميرهم وتحطيمهم وقتلهم لهذه الملة في نفوس النشیٰء من ذراري المؤمنين . . عن طريق مدارسهم ومعاهدهم وأجهزة إعلامهم ومؤسساتهم الطاغوتية المختلفة . .

---

(١) هذا الكلام لما كتبته استعظمه كثير من السطحيين وقتها وكان سببا لخلاف بعضهم معي؛ وتحذيرهم من كتابي هذا، وذنبي أني تبصرت بهذه الرابطة وأمثالها في وقت مبكر؛ أما هم فكانت علىٰ أبصارهم غشاوة لتقليدهم المشايخ؛ واغترارهم بعلماء الحكومات الذين يمدحونها.
واليوم تعرّت هذه الرابطة؛ وتكشّف خطّها الخبيث لكل أحد؛ فصارت تعرف بأنها رابطة لنصرة اليهود والنصارىٰ والمرتدين وجميع الملل باستثناء المسلمين؛ ورئيسها من أخبث وأوسخ الكهان والرهبان وأعداء الأسلام.

فحيث أن هؤلاء الطواغيت أشد خبثًا وأعظم مكرًا من فرعون . . فهم لا يلجأوون إلىٰ أسلوبه في تقتيل الأبناء، إلا في آخر الأمر حين تعجز أساليبهم الخبيثة الأخرىٰ، فيحاولون جاهدين قبل ذلك أن يقتلوا هذه الملة في نفوسهم، فبدلًا من أن يهلكوا الأجيال حسيًا كما فعل فرعون، يقتلون فيهم هذه الملة فيهلكونهم أيّما إهلاك، وذلك بتربيتهم علىٰ حبهم والولاء لهم ولقوانينهم وحكوماتهم عبر مدارسهم الفاسدة هذه، ووسائل إعلامهم الأخرىٰ التي يدخلها وينقلها كثير من جهال المسلمين إلىٰ بيوتهم . . فبدلًا من أن يثير هؤلاء الطواغيت الناس باستعجال القتل الحقيقي . . . يتبعون هذه السياسة الخبيثة ليسبح الناس بحمدهم وبأفضالهم علىٰ أنهم ماسحوا الأمية وناشروا العلم والحضارة . . وفوق ذلك كله وتحت هذا الغطاء يربون من ذراري المسلمين أتباعًا أوفياء وخدمًا مخلصين لحكوماتهم ولقوانينهم وأسرهم الحاكمة . . أو علىٰ أقل الأحوال يربون جيلًا مائعًا جاهلًا منحرفًا، راغبًا عن هذه الدعوة الصلبة والملة القويمة . . مداهنًا لأهل الباطل . . لا يقوىٰ بل ولا يصلح لمواجهتهم أو يفكر فيها . . وقد فصّلنا هذا الأمر وكشفنا أسلوبهم الخبيث هذا في رسالتنا المسماة: (إعداد القادة الفوارس بهجر فساد المدارس).

وكم يسقط ويهبط الداعية إذا زلّ بشيء من هذه المزلات، فما هذه الحال التي نعايشها اليوم من انعدام ثقة الناس بالقيادات الإسلامية وبالعلماء إلا واحدة من ثمرات هذه المزلة . . وكم

يصغر في أعين الطغاة أنفسهم وتنتزع هيبته من قلوبهم، فلا يخافونه ولا يخشون دعوته .. ولا يحسبون له عند ذلك أي حساب .. أما إذا رأوا منه صلابة وثباتًا كثبات الجبال، وبراءة وإباء وترفعًا عن الالتقاء بهم في أي نقطة من نقاط طرائقهم المخالفة لمنهج الدعوة القويم فعند ذلك يحسبون له ألف حساب ويلقي الله الرعب والمهابة في قلوب الطغاة .. كما كانت هيبة النبي ﷺ في نفوس الكفار .. وكما كان يُنصر بالرعب من مسيرة شهر .. فالحذر من هذه المنزلقات .. والحذر من السقوط في ألاعيب الطغاة ..

أخيرًا .. فقد بيّن الله ﷻ لنا هذه المخطّطات، وكشف لنا تلك الألاعيب، وحذّرنا منها .. وأعطانا الحل والعلاج .. وأرشدنا إلىٰ الطريق الصحيح، فقال مباشرة قبل قوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القَلَم: ٩]، قال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [القَلَم: ٨].

لا تطعهم .. ولا تركن إليهم، ولا تقبل أنصاف حلولهم .. فإن ربك قد أعطاك الدين الحق، ودلّك علىٰ الصراط المستقيم، وهداك إلىٰ ملة إبراهيم ..

* ومثل ذلك تمامًا، قوله تعالىٰ في سورة الإنسان وهي مكية أيضًا: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ﴿٢٣﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسَان: ٢٤]، وفي ذكر القرآن وامتنان الله ﷻ علىٰ نبيه بتنزيله عليه، قبل النهي عن طاعة الكفار الآثمين، بيان

لطريق الدعوة الصحيح . . فإن هذه الطريق لا يختارها الدعاة من عند أنفسهم، وليس لهم أن يرسموها أو يحددوا معالمها كما يهوون أو يتخيرون . . وإنما هي ملة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين المذكورة المفصلة في هذا القرآن.

* ومثل ذلك أيضًا قوله تعالىٰ في سورة الفرقان وهي مكية أيضًا: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن الكريم . . فلا تعدل لمنهج وأسلوب وطريق للدعوة سوىٰ الطريق التي أمرت بها في القرآن . . وأنذرهم بهذا القرآن ولا تتبع غيره من الطرائق المعوجة الملتوية التي فيها طاعة للكفار، أو سكوت عن بعض باطلهم . .

* ومثله أيضًا قوله لنبيه ﷺ بعد أمره بتلاوة كتابه(١) بقليل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٨-٢٩] والآيات مكية.

(١) ومن معاني التلاوة: الاتباع، من تلا الشيء، أي تبعه . .
ولا شك أن تلاوة كتاب الله ﷻ، بقراءته وتعلمه والتمسك به واتباع أوامره من أعظم أسباب الثبات علىٰ هذه الطريق كما تقدم، ويلتحق بذلك دوام ذكر الله ﷻ ومراقبته وقيام الليل . . كما قال تعالىٰ بعد الآية المتقدمة من سورة الإنسان مباشرة: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

* ومثله قوله تعالىٰ في سورة الشورىٰ وهي أيضًا مكية، بعدما ذكر ما شرعه لنا وللنبيين من قبل، نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ . . : ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ﴾ [الشُّورَىٰ: ١٥]، وأمره سبحانه لنبيه بعد ذلك بقليل أن يقول للكافرين: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الشُّورَىٰ: ١٥] . . براءة واضحة منهم ومن أهوائهم ومناهجهم وطرائقهم المنحرفة . .

ومثله أيضًا قوله تعالىٰ لنبيه ﷺ في سورة الجاثية وهي مكية أيضًا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجَاثِيَة: ١٨-١٩].

وهكذا فلو تتبعنا آيات القرآن، لوجدنا عشرات بل مئات الآيات الدالة علىٰ هذه المعاني المهمة . . فالله ﷻ لم يخلق عباده عبثًا . . ولم يتركهم هملًا . . أفلا يكفي الدعاة وضوح هذا المنهج واستقامته. .؟؟ أوَ لا يسعهم ما وسع رسول الله ﷺ والنبيين من قبله. .؟؟ أما آن لهم أن يستيقظوا من الغفلات؟؟ ويقوّموا الإنحرافات . . أوَما كفاهم سقوطًا في ألاعيب الطغاة . . وكتمانًا للحق . . وتلبيسًا علىٰ الناس . . ومضْيعة للجهود والأعمار. .؟؟ فإنه والله اختيار واحد . .

«إما شريعة الله، وإما أهواء الذين لا يعلمون . . .

وليس هناك من فرض ثالث، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة، والأهواء المتقلبة . .

وإن هذه الآيات لتعيّن سبيل صاحب الدعوة وتحدده، وتغني في هذا عن كل قول وعن كل تعليق أو تفصيل . . إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء منبعها الجهل . . وعلىٰ صاحب الدعوة أن يتّبع الشريعة وحدها، ويدع الأهواء كلها . . وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلىٰ شيء من الأهواء . . فأصحاب هذه الأهواء يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة . . فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة له . . فهم إلب عليه، بعضهم ولي لبعض . . ولكنهم مع ذلك أضعف من أن يضروه . . ولن يضروه إلا أذىٰ، فالله وليه وناصره، وأين ولاية من ولاية؟ وأين ضعاف جهال مهازيل يتولىٰ بعضهم بعضًا من صاحب شريعة يتولاه الله . . .»[1]، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

هذا هو الطريق . . فهل من رجال؟؟

أبو محمد

سنة خمس وأربعمائة وألف

من هجرة المصطفىٰ

(١) من الظلال بتصرف.

التوحيد أولاً وأبداً



(١)

التوحيد مركب النجاة لا يُفَرّط فيه إلا هالك

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله

فللتوحيد معالم دُرِس بعضها بين كثير من الناس؛ وميّعوا عراه الوثقىٰ؛ حتىٰ وَلَج كثير منهم في نواقضه، واستساغوا أنواعا من الشرك؛ وعبدوا طواغيت؛ بعضها قبورية وحَجَرية، وكثيرا منها قصورية عصرية؛ وتولّوا المشركين بأنواعهم.

ولا غرابة في هذا؛ فقد أخبر به النبي ﷺ بقوله: (..لا تقوم الساعة حتىٰ تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتىٰ تعبد قبائل من أمتي الأوثان)

فبين النبي ﷺ في هذا الحديث أن نقض التوحيد كما أنه يكون بعبادة الأوثان؛ يكون أيضا باللحوق بالمشركين وموالاتهم ومظاهرتهم علىٰ المسلمين.

ومنه يُعلم أن من أهم واجبات التوحيد: البراءة مِن الشرك ومِن أهله أيضا.

بل قَدَّم الله سبحانه البراءة من المشركين علىٰ البراءة من الشرك نفسه؛ فقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ

وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾

فتأمل كيف قدّم البراءة من الأقوام المشركين؛ علىٰ البراءة من معبوداتهم؛ لأن كثيرا من الناس قد يتبرّأ من المعبودات ولكنه لا يتبرّأ من عابديها؛ بل يُواليهم ويُظاهرهم ويناصرهم ويتحزّب لهم ويجادل عنهم وعن أفكارهم الكفرية، ومذاهبهم العلمانية؛ فلا يكون قد أتىٰ بواجبات التوحيد.

ولو تَتبّعت القرآن لوجدت تقديم ذلك يتكرر، والتكرير يفيد التقرير؛ فمن ذلك قوله تعالىٰ عن إبراهيم أيضا: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾

فتأمل كيف قدّم اعتزالهم علىٰ اعتزال مايدعون.

وحين عَنّف إبراهيمُ قومَه وسَفّه أحلامهم وعقولهم وبرئ منهم؛ قدم (الأُفَّ) لهم، علىٰ الأفّ لأصنامهم فقال: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ومثله الفتية أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾

فتأمل تقديم اعتزال قومهم علىٰ اعتزال ما يعبدون؛ فهذا التقديم وتكريره في القرآن ليُقرّر أهمية البراءة من المشركين واعتزال مولاتهم وترك نصرتهم؛ وذلك لتفريط الناس فيه؛ فإن أكثرهم وإن تبرّأوا من الشرك وعبادة الأوثان؛ لكنك تراهم أولياء

للمشركين وأحبابا وأنصارا وجندا محضرين . . ولو تأمّلت أحوال أهل زماننا لوجدت أن أكثر نواقض الإسلام انتشارا بين الناس؛ هي مولاة المشركين وعدم البراءة منهم؛ ومناصرتهم ومظاهرتهم علىٰ المسلمين.

فإن دَعَوتَهم إلىٰ التوحيد والبراءة من الشرك والتنديد؛ صاحوا بك وضجّوا قائلين: وهل نحن مشركون!؟ هل ترانا نعبد الأوثان!؟ أو نسجد للأصنام!؟

وما شعروا أن مظاهرة عابدي الأوثان والطواغيت ومناصرتهم علىٰ المسلمين ناقض من نواقض التوحيد؛ مثل عبادة الأوثان.

وأن الخروج من دين الإسلام يكون تارة بهذا، وتارة بهذا، وتارة بكليهما، أو بغيرهما من النواقض!

ولكن مصيبة أهل زماننا أنّهم يعرفون دقائق المعارف الدنيوية والتطورات التكنولوجية ووسائلها وينفقون الساعات الطوال في تَعلّمها؛ ولا يُنفقون عُشر معشار ذلك لتَعلُّم الغاية التي خُلقوا لأجل تحقيقها؛ وهي التوحيد وكلمته (لا إله إلا الله) وعراها الوثقىٰ؛ ولا يتنبّهون أو يَحْذَرون من أخطر نواقضها!

كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾

- فكثير من الناس مثلا لا يعلم أن التشريع مع الله فيما لم يأذن به الله وفقا للدساتير الوضعية، أو قبول هذا التشريع: شرك أكبر مناقض للتوحيد؛ كمناقضة عبادة الأوثان للتوحيد؛ فتجد كثيرا من المنتسبين للإسلام يُمارسونه أو يُنيبون عنهم من يُمارسه؛ دون أدنىٰ حرج؛ بل هناك مِنَ المنتسبين للعلم من يُزيِّنه ويُسوِّغه، ويُجادل عنه وعن أهله، ويُشدّد النَكير علىٰ من يُحذّر من هذا الشرك العصري؛ أو يبرأ من أهله ومناهجهم! ويصفه بالغلو، ويصف تحذيراته بمنهج الخوارج!

- وكثير من الناس ضَلَّلهم علماء السلاطين وأفهموهم أن القوانين الوضعية لا تناقض الشريعة!

وأن تحكيمها لا يناقض التوحيد، بل هو مُجرّد معصية؛ بالكاد تصل إلىٰ الكفر الأصغر!

-ومنهم من يعلم أن القوانين الوضعية مناقضة للشريعة؛ لكن ليس عنده من التوحيد ما يمنعه من تَولّىٰ أهلها ونصرتهم؛ ولا عنده من عرىٰ التوحيد الوثقىٰ ما يحجزه عن مظاهرة مشركي القوانين وعساكر الدساتير؛ علىٰ طلاب الشريعة وأنصارها.

-ومنهم من أفهمه مرجئة العصر وجهميّة الزمان أن الطاغوت هو الشيطان والأوثان والسحرة والكهان فقط؛ أما وليّ الأمر! فمهما طغىٰ وبغىٰ وتَعَلْمَنَ وشرّع وحكم بغير ما أنزل الله فليس بطاغوت بل طالوت!

فلم يعرفوا أن في الحكام والمشرّعين؛ طواغيت شرٌّ وأخبث! من الأوثان والسحرة والكهان.

ولذلك دخل كثير منهم في دين الطواغيت؛ وعبدوهم بمتابعتهم في تشريعهم مالم يأذن به الله؛ وناصروهم ولم يَكفروا بهم؛ ولا تبرّؤوا من نصرتهم وعبادتهم؛ بل صاروا لهم جندا محضرين، ولشركهم حراسا وسدنة مخلصين!

-وبعضهم حَصر العبادة بالركوع والسجود والدعاء والنُسك ونحوه .. ولم يعرفوا أن الطاعة في تحريم ما أحل الله أو تحليل ماحرّم الله أو تشريع مالم يأذن به الله؛ عبادة فوقعوا بشركها.

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد: (بابٌ من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلَّ الله أو تحليل ما حرّمه الله فقد اتخذهم أربابًا)

عن عديّ بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، فقال له: إنا لسنا نعبدهم.

قال: «أليس يحرِّمون ما أحل الله فتحرِّمونه، ويُحِلُّون ما حرّم الله فتُحلُّونه؟»

فقال: بلىٰ.

قال: «فتلك عبادتهم»

-وكل ذلك وَقَعَ فيه من وقع بإعراضهم عن تَعلُّم معنىٰ (لا إله إلا الله) ومعرفة التوحيد الذي هو حق الله علىٰ العباد؛ كي يحقّقوه ويُوحّدوه ولا يشركوا به شيئا.

وأعانهم علىٰ هذا الإعراض وأَزَّهم إليه مشايخ السوء ودعاة الضلالة الذين زيّنوا لهم الشرك وجادلوا عن أهله وطواغيتهم؛ وزهّدوهم بالتوحيد وبتعلّمه، بدعوىٰ أنّ جميع الناس موحدون، ولا يحتاجون لدعوة التوحيد ولا لتعلمه!

مع أن الله تعالىٰ أراد منا أن نَصبغ حياتنا كلها بل ومماتنا؛ بالتوحيد والبراءة من الشرك والتنديد فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

فاجعل التوحيد في حياتك أولا ودائما واحذر أن يكون أبو جهل أعلم منك بالتوحيد؛ فقد قال الله تعالىٰ مخبرا عن المشركين الأوائل بأنهم كانوا عندما يسمعون دعوة النبي ﷺ لهم للتوحيد يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

فالمشركون الأميون الجاهليون فهموا أنّ ما يدعوهم إليه النبي ﷺ من التوحيد وقول (لا إله إلا الله)

يقتضي البراءة من معبوداتهم وشركياتهم وطواغيتهم فمن لم يفهم هذا من كلمة لا إله إلا الله وظن أنه يمكن الجمع بين قولها واتباع الطواغيت وعدم البراءة منهم واجتنابهم؛ كان أبو جهل وأمثاله أعلم منهم وأفهم لمعنىٰ (لا إله إلا الله)

❁ ❁ ❁



(٢)

ميزاننا وموازينهم

ومِن عرىٰ التوحيد الوثقىٰ الحب في الله والبغض في الله والموالاة في الله والمعاداة في الله فلا يجوز مَحبّة الكفار أو موالاتهم ماداموا علىٰ كفرهم أو شركهم؛ بل تجب البراءة منهم ومِن شركهم؛ ويجب بغضهم وبغض كفرهم في القلب علىٰ أقلّ تقدير لمن أراد أنْ يُحقق التوحيد الذي هو حقّ الله علىٰ العبيد؛ أمّا من شاء أن يكون مِن الطائفة الظاهرة القائمة بأمر الله فلا بُدّ له من إظهار ذلك وإبدائه.

فالبراءة من جميع الكفار والمشركين والبراءة من شركهم؛ وبغضهم؛ يتضمنّها شِقّ التخْلية أو النفي الذي هو نِصْف شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) ولذلك كانت أوثق عرىٰ الإيمان والتوحيد: المولاة في الله والمعاداة في الله؛ والحب في الله والبغض في الله؛ وهي مُوَزّعة علىٰ شقي النفي والإثبات في كلمة التوحيد.

وتعرية الإيمان والتوحيد وقصقصة جناحيه مِن هذه العرىٰ الوثقىٰ؛ تَحْرِم المسلم مِن الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ وتجعله لا يُفرّق في التعامل بين الكافر والمسلم؛

ويَتدرّج به الشيطان حتىٰ يَصل إلىٰ التسوية بين المسلمين والمجرمين في المحبة والموالاة والحقوق والواجبات!

وانظر إلىٰ ما آلت إليه أحوال مَن يَسعون إلىٰ تمييع بُغْض المسلم للكفار؛ وإلغائه من قلوب المسلمين؛ كيف يجلسون وينامون في أحضان الطواغيت ويُثنون عليهم ويُرقّعون لهم ولأنظمتهم! وكيف اختلّ عندهم ميزان التوحيد فأمسوا يُخَطِّئون من يَتمسّك بلوازم التوحيد وعُراه الوثقىٰ وينكرون عليه؛ وصاروا يُجوّزون مودّة الكفار! بل ونصرة جيوشهم وتكثير سوادها؛ وليس هذا وقفًا علىٰ جيوش طواغيت العرب؛ بل بَلَغ ببعضهم الأمر إلىٰ تجويز المشاركة بجيوش الصليبيين! التي تغزوا بلاد المسلمين!

وسوء هذا المُنقلب والمآل؛ يُستدل به بوضوح علىٰ فساد التقعيد والتأصيل والحال!

وهؤلاء لو فَقِهوا ملّة إبراهيم عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام؛ ما رَغِبوا عن عُراها الوثقىٰ ولا مَيّعوها؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ فمهما وُصِفَ الراغب عن ملّة إبراهيم بالحكمة والفقه والعلم والفهم ونال الشهادات ومُنِح الألقاب؛ فلا يُغني ذلك عنه شيئا؛ وقد حَكَمَ الله عليه بأنّه قد سَفِهَ نفسه.

يقول الله تعالىٰ آمرا لنا بأن نتأسىٰ بملة إبراهيم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا

تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾

فملة إبراهيم قد أوجبت البراءة من الكفار ومعبوداتهم؛ وجَعَلت العداوة والبغض في الله المنافي للمحبة والمودة مَمدودًا ومُستمرّا بيننا وبين عموم القوم الكافرين؛ حتىٰ يُؤمنوا بالله وحده؛ أي حتىٰ يُحقّقوا التوحيد، ويبرأوا من الشرك والتنديد؛ وهذه البراءة والبغضاء قد خاطب وواجه بها إبراهيمُ والذين معه قومَهم وأقربَ الناس إليهم.

وقد جعل الله التوحيد لنا ميزانًا دقيقًا نَزِنُ به المناهج والأشخاص والجماعات؛ والطوائف والدول والأمم؛ فبمقدار تحقيق الإنسان للتوحيد يَقْرُب إلينا ويُحبّ في الله؛ وكُلّما ابتعد عن التوحيد ابتعد عنا؛ وحين ترانا نُقَدّم شخصًا حليقًا علىٰ شخصٍ ملتحي؛ فاعلم أنّ الذي قَدّمه تحقيق الحليق للتوحيد وتفريط الملتحي به.

وعندما نَترحّم علىٰ مبتدع ولا نفعل مع آخر؛ فاعلم أن بدعة الأول لم تناقض التوحيد؛ وبدعة الثاني قد ناقضته!

فهذا هو ميزاننا الدقيق: التوحيد؛ تَحِلّ به عُقَد ما استشكل عليك من كلامنا؛ ولن تجد فيه إن شاء الله تناقضًا مادمتَ تربطه بالتوحيد وتعرضه عليه.

وميزاننا هذا أخذناه من أعظم عُرىٰ الإسلام التي فيها نُحِب

ونُبغض؛ وعليها نُعادي ونُوالي؛ ومِنْ أجلها نَمْنَع ونُعطي؛ ونَرفَع ونَخفض.

وفي الحديث الذي يرويه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: (يُصَاح برجلٍ من أمتي يوم القيامة علىٰ رؤوس الخلائق. فيُنشر له تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل مَدّ البصر.

ثم يقول الله ﷻ: هل تُنكر من هذا شيئًا؟

فيقول: لا يا رب،

فيقول: أَظَلَمَك كتَبتي الحافظون؟

فيقول: لا يا رب.

فيقول: أفَلَك عُذر؟

فيقول: لا يا رب.

فيقول: بلىٰ إن لك عندنا حسنة؛ فإنه لا ظُلْم عليك اليوم؛ فتُخرج له بطاقة فيها: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله)

قال، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟

فيقول: إنك لا تُظلم.

فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة. فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة).

فهكذا ميزاننا أهل التوحيد وأنصاره؛ وبهذا نَزِن الأقوال والأعمال؛ وأنواع القتال؛ وبه نَزِن الكتابات والكُتّاب؛ والعلماء والجماعات؛ والطوائف والناس أجمعين . . فلا نُقَدِّم علىٰ تحقيق كلمة التوحيد واجتناب الشرك والتنديد شيئًا من الأشياء. .

فمَنْ حَقَّق ذلك وقام به؛ نال الزلفىٰ عندنا، وله العذر كما هي طريقة أهل السنة فيما أخطأ فيه؛ أو تأوّله فيما هو دون ذلك، ولا يمنع هذا من بيان أخطائه أو التنبيه علىٰ زلاته؛ نُصحًا لله ولدينه وللمسلمين.

ومَنْ ثَلّمَ هذا الأصل الأصيل؛ أو مَيَّع شيئًا من عُراه الوثقىٰ؛ ابتعد عَنّا بقدر ما مَيّع منها؛ ومَنْ هَدَمها فهو المُبْعد عندنا والمؤخَّر؛ وإن عَظّمه الناس وقَدّموه، ولا يمنعنا من التحذير مِن ضلاله وبيان خطله وزيغانه؛ تَعدّد ألقابه أو عِظَم عمائمه وشهاداتة؛ أو مَحبّة الناس له وثناؤهم عليه!

هذا هو ميزاننا العادل الُمنزل من عند الله؛ وليس ما سواه من الموازين وإن عَظّمها وقدّمها وضخّمها مَنْ ضخّمها!!

وإن شئت أن تعرف عِظَم شأن هذا الميزان؛ فتأمل منهاجنا الذي هو ثمرة ميزاننا . . ثم تأمل مناهجهم وتخبطاتهم فإنها ثمرة موازينهم.

فإذا عرفت الحق بأدلّته؛ وأنَارَ الله به بصيرتَك؛ فالزمه ولا تُعَكِّره بكلام مُتفلسفٍ؛ أو تُقدم عليه كلامًا عاطفيًا؛ أو تُهْمِله تَضرّرا بالمخالفين؛ فتَزلّ وتَشقىٰ.

(٣)

أبشروا فسيُتمّ الله نوره ولو كَرِه أعداء التوحيد

خصوم دعوة التوحيد في كل زمان يرمون أنصار التوحيد بالتعنّت فيه والتشدد!

ويبهتونهم باختراع توحيد ما أنزل الله به من سلطان!

ومن رأىٰ تشديد الأنبياء في التوحيد وحرصهم منذ أول يوم وحتىٰ مماتهم علىٰ إرساء قواعده وبناء عراه الوثقىٰ؛ وقَطْع كل طريق يُعكّره أو يُضعضعه أو يُشوّهه؛ وعدم التساهل مع ما يناقضه من الشرك ولو كان أصغر؛ من تأمل حالهم هذه وسيرتهم فيه؛ لم يعجب مِن تشدّدنا في أمر التوحيد ورآه أمرا طبيعيا في صفة ورثة الأنبياء وتأسيا بهم فالأنبياء كان أصل دعوتهم وميراثهم هو التوحيدومن لم يكُن أصل دعوته ودندنته التوحيد فكيف سيكون من ورثتهم؟!

أُشفق علىٰ بعض خصومنا الذين استدرجهم الشيطان؛ وجرّتهم الخصومة إلىٰ أن وَقَعوا في الطعن في التوحيد نفسه! شعروا أو من حيث لا يشعرون!

أليس يشوّهون التوحيد الذي ندعو إليه؛ ويطعنون فيه علىٰ أنه من اختراعنا وتأليفنا؟!

وهل قال الطواغيت الذين نُكفّرهم، ونكفر أنصارهم غير هذه الكذبة عنا وعن توحيدنا؟!

وهل نقموا علينا غير هذا التوحيد الذي يُعيرنا به خصومنا!؟

فبشراهم أن قاسموا الطواغيت وشاركوا أنصارهم؛ خصومتهم معنا في التوحيد!

وبشراهم أنهم قد ورثوا شبهات وأقاويل أعداء دعوة التوحيد في كل زمان أتواصوا به؟ بل هم قوم طاغون!

مساكين هؤلاءفوالله لو قرأوا كلام أعداء التوحيد وأعداء دعاته في كل زمان؛ لرأوا أنهم قد ورثوا شبهاتهم؛ وردّدوا كلامهم وبهتانهم لأئمة التوحيد في أزمنتهم!

وأنهم اليوم يُشاركون الطواغيت والجهمية وغلاة المرجئة وعلماء السلاطين في عداوتهم لما جعلوه(توحيدنا) ويعاونونهم في محاولات إسقاطه وتشويهه!

كَناطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا ليُوهِنَها
فَلَمْ يَضِرّها وأوْهىٰ قَرْنَه الوعِلُ

۞ ۞ ۞

(٤)

التوحيد أولا ودائما ولو كره شانئوه

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾

-كما أن القبوري يشمئز قلبُه من الكلام في توحيد الله بالدعاء والعبادة والذبح والتوسل والاستغاثة والاستعانة وإخلاص ذلك لله؛ فكذلك القصوري يشمئز قلبُه من تكرارنا الكلام في توحيد الله بالحكم والتشريع؛ والتأكيد علىٰ أن تكون غاية الجهاد وثمرته هي إفراد الله في الحاكمية والتشريع.

-وكما أن القبوري يَستبشر حين يُذكر ويُمدح ما يدعوه من القباب والقبور! فكذلك القصوري يَستبشر ويفرح حين يُمدَح طواغيته وأولياء أمره.

-وكما يُجادل القبوريون عن شركيات قبورهم؛ ويَدَّعون أنها لا تناقض التوحيد والإسلام.

يُجادل القصوريون عن شركيات قصورهم ويدعون أنها لا تناقض التوحيد والإسلام.

والموحِّد يبرأ من الشرك وأهله؛ فيبرأ من شرك القصور كما يبرأ من شرك القبور؛ ويبرأ من عبيدهم وأنصارهم.

ويُوَحِّد الله في جميع أنواع العبادة، ويوالي أهل الإسلام والتوحيد.

۞ ۞ ۞

(٥)

بين فرعون القديم وفراعنة الزمان

فرعون عندما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾

قطعا لم يُرِد؛ ولا فَهِم مِنه عبيده أنه يقصد: أنه خالقهم! فكلهم يعلم أنه مخلوق مثلهم؛ وأن هناك مَن وُجِد ووُلِد وخُلق قَبْل أن يولد فرعون! فكيف لفرعون أن يزعم أنه خالقهم إذن!؟

إنما أراد فرعون بقوله ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ما شرحه في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

هو يريد الطاعة المطلقة في كل أمر من أمور الدين والدنيا! ومهما أمرهم بأمر أطاعوه؛ وهتفوا باسمه؛ وارتفعت أصواتهم بالتعييش!

وبالمصطلح القانوني العصري هو يحصر سلطة التشريع المطلقة في نفسه! فحتىٰ أعوانه مِن مَلَئه الذين يصطفيهم للتشريع في صرحه الوثني (البرلمان) لا قيمة لتشريعهم حتىٰ يُقِرّه!

فهذا هو معنىٰ قوله ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ الذي يطلبه كل الفراعنة في كل الأزمنة!

وفي زمانا نَصّت عليه دساتيرهم صراحة حين أناطت السلطة التشريعية المطلقة بهم!

وكل مَن يُقسم علىٰ احترام دساتيرهم فهو يُقِرّهم علىٰ مطلب فرعون الأول ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾

ومَن لم يفهم هذا؛ وظن أنّ فرعون ادعىٰ أنه الخالق؛ ففرعون موسىٰ وجميع الفراعنة أفهم منه وأفقه بمطلوبهم!

اللهم إنا نبرأ إليك من جميع الفراعنة؛ ومن أنصارهم ودساتيرهم وقوانينهم الوضعية الوضيعة

❁ ❁ ❁

(٦)

حول التوحيد ندندن

بعض الناس يستنكر خطاب التوحيد الذي ندندن عليه!

ويقول: هل الناس كفار حتىٰ نظل نخاطبهم بالتوحيد .. التوحيد .. التوحيد!؟

عجيبٌ والله أن يصدر مثل هذا عن مسلم يعرف التوحيد ومكانته من دين الإسلام!

وهل يقول هذا من يفهم قول الله تعالىٰ: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾

قال علي بن أبي طالب: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾: (هي التوحيد) وقال ابن عباس: (هي لا إله إلا الله)

وهل يقول هذا مسلم يعلم مكانة التوحيد في القرآن؟

قال ابن القيم: (القرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم) مدارج السالكين

وقال شيخنا ابن تيمية: (توحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته واستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره) الفتاوىٰ

وقال ابن تيمية أيضا: (فإن التوحيد أصل الإيمان، وهو الكلام الفارق بين أهل الجنة وأهل النار؛ وهو ثمن الجنة، ولا يصح إسلام أحد إلا به) الفتاوىٰ

قال ابن القيم: (كلمة التوحيد هي كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام وبها انقسم الناس إلىٰ شقي وسعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان) اهـ

والتوحيد هو الغاية من خلق الخلق؟ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليوحدونني بالعبادة، قال ابن عباس: (كل ما ورد في القران من العبادة فمعناه التوحيد)

وقال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: (يعني شهادة أن لا إله إلا الله)

وقال الحسن: (سليم من الشرك).

وقال ابن القيم: (القلب كالأرض إنما ييبس إذا خلا من توحيد الله، وحبه ومعرفته وذكره ودعائه) اهـ

فلا يضيق صدرٌ مؤمنٌ من تكرار الكلام في التوحيد والبراءة من الشرك والتنديد، والتحذير من نواقض التوحيد، وتكفير من نقضه والبراءة منه، وإبداء ذلك وإظهاره علىٰ من قدر عليه..

فهذه هي ملة إبراهيم التي بَيّن الله تعالىٰ أنه لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه..

قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾

وهذا التوحيد هو دعوة الرسل كافة وهو ميراثهم الذي من لم يدعُ إليه؛ فليس من ورثتهم قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾

والتوحيد أعظم ما بُعِث به الرسل ولذلك لم يشغلهم عن التركيز عليه والدعوة إليه سجنٌ أو بلاء، أو شدّة أو ضيق: أو مرض .. ففي السجن قال يوسف ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ وفي ظلمات الليل والبحر وبطن الحوت نادىٰ يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعند نزول مرض الموت وصىٰ يعقوب بنيه بالتوحيد ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ وبالشهادة بالتوحيد، والدعوة إليه فضّل الله أهل العلم وقرنهم بالملائكة فقال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فشرف العلماء بدعوتهم وشهادتهم بأعظم مشهود به وهو: (لا إله إلا الله)

فإن ضاق صدرك أو شعرت بتحامل علىٰ من يكرّر الكلام في التوحيد والدعوة إليه، واستثقلت ذلك أو كرهته منه؛ فعالج قلبك وراجع إيمانك! وحذارِ أن تَلقىٰ الله علىٰ هذه الحال؛ لأنها ليست حال أهل الإيمان؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾

وكان مما عَيّر أعداء الرسل به نبينا ﷺ كلامه بالتوحيد ودعوته إليه؛ فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ والنبي ﷺ دعا المشركين إلىٰ التوحيد في مكه وغيرها.

وبقي يدعو المسلمين أيضا إلىٰ التوحيد في المدينة وغيرها؛ إلىٰ أن توفاه الله؛ فكان من آخر كلامه ﷺ التأكيد علىٰ التوحيد وحفظ جنابه من الشرك، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي لم يقم منه: (لعن الله اليهود والنصارىٰ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)متفق عليه

وبالدعوة إلىٰ التوحيد أوصىٰ النبي ﷺ رسله وقادة جيوشه؛ وبالتوحيد استفتح كتبه إلىٰ من راسلهم من ملوك الأرض .. فقال ﷺ لمعاذ: (ادعهم إلىٰ أن يُوحّدوا الله) رواه البخاري.

والقتال لا يكون في سبيل الله؛ إلا إذا كان لأجل أن تكون كلمة الله (التوحيد) هي العليا؛ عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: (سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل: يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية ويقاتل

رياء. أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله).

ولا تكون كلمة الله هي العليا في قتال ينشد دولة لا تُوحّد الله ولا تُفرد شريعته بالحاكمية!

ولذلك فأعظم مهمة يجب أن يتّصف بها مشايخ المجاهدين وشرعيوهم؛ هي المداومة علىٰ التذكير بالتوحيد؛ والتحذير مما يضاده من التنديد بكافة صوره.

فأعظم مصلحة في الدين؛ شُرِع مِن أجلها الجهاد هي التوحيد؛ بل هي أعظم مصلحة في الوجود؛ وأعظم مفسدة شرع الجهاد لدفعها وهدمها هي الشرك؛ قال النبي ﷺ لما سئل عن أعظم الذنب: (أن تجعل لله ندا وهو خلقك)

وقال شيخنا ابن تيمية: (لا شيء أحب إلىٰ الله من التوحيد ولا شيء أبغض إليه من الشرك)

وقال ابن تيمية أيضا: (كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد؛ كان إلىٰ الشرك والبدعة والإفتراء أقرب)اهـ

اقتضاء الصراط المستقيم.

وقال ابن القيم: (كما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة؛ فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك) اهـ. الفوائد.

ومِن أعظم ثمار التوحيد: أن تكون الدعوة علىٰ بصيرة؛ وأن لا تتشوّش بوصلة المسيرة.

وقال ابن رجب: (اجتهدوا اليوم في تحقيق التوحيد فإنه لا يوصل إلىٰ الله سواه؛ واحرصوا علىٰ القيام بحقوقه فإنه لا ينجي من عذاب الله إلا إياه)

وقال الإمام محمد بن عبدالوهاب: «فالله الله إخواني؛ تمسكوا بأصل دينكم: أوله وآخره، أُسِّه ورأسه،

وهو: شهادة أن لا إله إلا الله» اهـ

ويقول الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (الكفر بالطاغوت ركن التوحيد فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن العبد موحدا؛ والتوحيد أساس الإيمان الذي تصلح به الأعمال؛ وتفسد بعدمه) اهـ

وَقال شيخنا ابن تيمية: (أول الدين وآخره، وظاهره، وباطنه: هو التوحيد، وإخلاص الدين كله لله؛ هو تحقيق قول لا إله إلا الله) اهـ الفتاوىٰ

❁ ❁ ❁

(٧)

الجهاد والنصر بلا رُشد ضلالٌ للبشر وتضييعٌ للثمر وأعظم الرشد هو التوحيد

- حين أوىٰ الفتية الذين استُضعفوا وأوذوا إلىٰ الكهف؛ طَلبوا أن يُهَيّء الله لهم من أمرهم رشدا؛ وذكر الله عنهم هذا وأَبرَزه؛ ولم يُبرز طلبَهم للنصر أو الظفر.

لأنهم إن رشدوا؛ رشدت ثمرات نصرهم؛ وإن لم يرشدوا فأي فائدة للنصر إن ضَلّوا وضلّ نصرُهم.

لذلك فالرشد كان من أهم ما طلبوه حين قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

- والرشد: هو الذي رَحلَ موسىٰ طلبًا له؛ وصَبرَ علىٰ شروط التَعلّم لتحصيله؛ فقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فمن لم يُفِدْه علمُه رشدا، فلا بارك الله فيه؛ ولا في علمه.

- وعُقلاء الجن لمّا عَلِموا أنّ القرآن يهدي إلىٰ الرشد؛ آمنوا به: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾

- وفـي قـولـه تـعـالـىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ فيه بيان أن الغاية المطلوبة من الدعاء والاستجابة لله والإيمان به هي: تحصيل الرشد.

فما هو أعظم الرشد المطلوب تحصيله وتحقيقه؟!

- إنه التوحيد الذي آتاه الله إبراهيم من قبل؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾

- فالرشد هو: ملّة إبراهيم وهو التوحيد؛ الذي من رغب عنه فقد سفه نفسه، وسفه جهاده، وسفه نصره.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾

- والرشد هو الذي أوصىٰ الله نبيه ﷺ أن يدعو به: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾

لأنـــــه ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾

- وقد فَسّر الله لنا أعظم الرشد بقوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- فلا رشد دون كفرٍ بالطاغوت وإيمان بالله.

- ولا رشد بغير كلمة الله (لا إله إلا الله)

- ولا رشد بلا توحيد.

وأعظم الرشد: **التوحيد أولا ودائما**

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

❁ ❁ ❁



(٨)

الثمرات الشنيعة لنقض التوحيد أو تمييعه

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وبعد:

فلقد كثر في زماننا المتعالمون الذين يجادلون بالباطل ليُدحضوا به الحق، وذلك مع فشوّ القلم، وتسهيل وسائل التواصل لكل نطيحة ومتردية أن تدلي بدلوها في المسائل العظام حتىٰ نطق الرويبضة، وتكلم السفهاء في أخطر المسائل، ولو كان جدال هؤلاء المتعالمين في فروع الدين لهان الأمر، ولكن جدال كثير منهم قد صار في أصول الدين وقواعده العظام، فهم يمارون اليوم في أهمية التوحيد، يريدون تهوينها وتوهينها؛ فيستخفّون بالدعوة إليه؛ ويتعجّبون من التركيز عليه؛ ويعتبرون كل من دافع عنه ودندن حوله تارة متنطعًا، وتارة مغاليًا، وتارة متشددًا، مع أن مَن عرف دعوة الأنبياء لم يتعجّب من دندنة ورثتهم علىٰ التوحيد، ومن تأمل دعوات الرسل وموقف أقوامهم منهم لم يعجب لموقف هؤلاء الخوالف ممن تابع الأنبياء في التركيز علىٰ دعوة الأنبياء، واستعظم شأن نواقضه، وشدد في انكار وحسم الذرائع التي قد توصل إلىٰ نواقضه، فقد ووجه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم

بمثل هذا الأذىٰ وأكثر منه؛ مع كونهم مؤيَّدين بالمعجزات، لا تشوب دعوتهم شائبة، ولا يُعَكِّر نهجهم وأخلاقهم معكر؛ فكيف نظن أن نقتفي آثارهم دون أن نُرمىٰ بمثل هذا؛ ونحن الضعفاء الذين يعترينا النقص والعجز والضعف والتقصير!

فهذا أمر لا بد منه كما قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي)، فمن لم يعادىٰ، ويُطعن فيه، فليشك في صحة اتباعه.

- شبهة أن الناس والمجاهدين موحدون فلا داعي للمزاودة عليهم بدعوة التوحيد:

ومَن طالع شبهات أعداء دعوة التوحيد علىٰ مر الأزمان وجد أنها تتشابه، يجترّها اللاحق عن السابق، ويكرّرها الآخِر عن الأوّل، ومن أشهر شبهاتهم التي يعرفها من يتابع ما يخربشون؛ دعواهم أن الأمة مسلمة؛ ومِن ثم فهي لا تحتاج إلىٰ الكلام في التوحيد، والمجاهدون موحدون ويرفعون راية التوحيد فلا داعي للمزاودة عليهم بدعوتهم إلىٰ التوحيد!

وفساد هذه الشبهة معلوم شرعا وواقعا

أما شرعا: فمعلوم أن نبينا ﷺ لم يخاطب بالتوحيد قوما مشركين وحسب؛ بل بقي ﷺ يدعو إلىٰ التوحيد كل الناس مسلمهم وكافرهم طوال حياته، فمن أشهر أحاديث التوحيد التي يتعلمها المبتدئ في قراءة كتب التوحيد؛ حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه

قَالَ: (كُنْتُ رَدِيفَ اَلنَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ حِمَارٍ فَقَالَ لِي يَا مُعَاذُ؟ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اَللَّهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اَللَّهِ؟ قُلْتُ اَللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ حَقُّ اَللَّهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اَللَّهِ أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، قُلْتُ يَا رَسُولَ اَللَّهِ أَفَلا أُبَشِّرُ اَلنَّاسَ؟ قَالَ لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا) متفق عليه

وقال ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: (لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يُحذّر ما فعلوا كي لا يتخذ قبره مسجدا.

والقرآن خاتم الكتب وهو خطاب الله للناس جميعا مسلمهم وكافرهم وكله توحيد قال ابن القيم: [كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه]

ولو ذهبنا نعدد الأدلة التي فيها خطاب الله تعالىٰ للمسلمين وخطاب رسوله ﷺ للمسلمين أيضا بالتوحيد، لحشدنا هنا ثلاثة أرباع متون التوحيد المعروفة، فهو أمر مقرر معروف لا يجادل فيه إلا جاهل أو ممارٍ.

أما واقعًا: فمن يعرف التوحيد يعرف أن له أبوابا شتىٰ دُرست معالم بعضها بين كثير من الناس فنقضوها، أو ميّعوا عراها الوثقىٰ، حتىٰ ولج بعضهم في أنواع من الشرك وعبدوا طواغيت عصرية وتولوا المشركين، فكثير من الناس لا يعلم أن: التشريع

مع الله فيما لم يأذن به الله وفقا للدساتير الوضعية: شرك أكبر مناقض للتوحيد، فيمارسه أو ينيب عنه من يمارسه، ومنهم من ضلله علماء السلاطين وأفهموهم أن القوانين الوضعية لا تناقض الشريعة، وأن تحكيمها لا يناقض التوحيد بل هو مجرد معصية بالكاد تصل إلىٰ الكفر الأصغر، ومنهم من يعلم أن القوانين الوضعية مناقضة للشريعة؛ لكن ليس عنده من التوحيد ما يمنعه من تولىٰ أهلها ونصرتهم؛ بل ومظاهرتهم علىٰ أنصار الشريع! وبعضهم حصر العبادة بالركوع والسجود والدعاء ونحوه؛ ولم يعرف أن الطاعة في تحريم ما أحل الله أوتحليل ما حرم أوتشريع مالم يأذن به الله؛ عبادة فوقع بشركها! وبعضهم يعلم ذلك كله ولا يمنعه علمه هذا من أن يكون من عساكر المشركين وأنصار المرتدين، وإن لم يكن منهم فهو لهم سلم وولي يجادل عنهم ويرقع لهم ويسوغ عملهم!

ومن عايش هذا وعرفه لم يكن عنده أهم من الدعوة إلىٰ التوحيد والدندنة عليه وعلىٰ عراه الوثقىٰ..

فإذا علم أنه أهم المهمات وأعظم الأصول زاد ذلك من تعظيمه لأهمية الدعوة إليه والدندنة عليه.

فكيف إذا أضيف إلىٰ هذا أن يعلم أن في ساحات الجهاد اليوم من ينتسب للجهاد وأهله، وربما تبوأ زعامة فصائل تتسمىٰ بجيش الإسلام ونحوه ومع ذلك تراه يُصرّح بأنّ غايته من قتاله أن

يُعطىٰ الشعب جميع السلطات ويُمكنه من اختيار (نوع الحكم) الذي سيحكمه! فالحاكمية عنده للشعب، وليس لرب الشعب؛ وتراه يُوَجّه بالرموت كنترول من قِبَل أولياء نعمته من طواغيت العرب فيعادي من يعادونه؛ ويوالي من يوالونه، ثم يتباكىٰ عليه من يتباكىٰ ويعُدّه من المجاهدين!

فهؤلاء وأمثالهم لا شك مِن أحوج الناس إلىٰ تعلم التوحيد وعراه الوثقىٰ، ومَن شك في ذلك وجادل فيه؛ فهو لا يعيش في الواقع، بل ربما مدفون في قواقع..

- التوحيد أعظم المطالب التي جاء بها الرسل:

وإعلم رحمك الله تعالىٰ أنَّ رأس الأمر وأصله وعموده، وأول ما افترض الله علىٰ ابن آدم تعلمه والعمل به، قبل الصلاة والزكاة وسائر العبادات، هو الكفر بالطاغوت واجتنابه، وتجريد التوحيد لله تعالىٰ.

فلأجل ذلك خلق الله سبحانه الخلق وبعث الرسل وأنزل الكتب وشرع الجهاد والاستشهاد ... ومن أجله كانت الخصومة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ومن أجله أصلًا تقوم الدولة الإسلامية والخلافة الراشدة ...

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليعبدونني وحدي..

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾

وهذا الأمر أعظم عروة من عُرىٰ الإسلام، فهو أصل الدين ولا تقبل دعوة ولا جهاد ولا صلاة ولا صيام ولا زكاة ولا حج إلا به، ولا يمكن النجاة من النار دون التمسك به، إذ هو العروة الوحيدة التي ضمن الله تعالىٰ لنا ألا تنفصم . . . أما ما سواها من عُرىٰ الدين وشرائعه فلا تكفي وحدها دون هذه العروة للنجاة . . . قال تعالىٰ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا . . .﴾

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾

والكفر بالطاغوت والإيمان بالله هما ركنا التوحيد النفي والإثبات، اللذان تحويهما كلمة التوحيد لا إله إلا الله. .

وتأمل كيف قدّم الله الكفرَ بالطاغوت واجتنابه في الذكر علىٰ الإيمان به والإنابة إليه سبحانه. .

تمامًا كما قدم النفي علىٰ الإثبات في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) . . . وما ذلك إلا تنبيهًا علىٰ أهمية هذا الركن العظيم من هذه العروة الوثقىٰ، فلا يصح الإيمان بالله ولا ينفع إلا بالكفر بالطاغوت أولًا . .

والتوحيد هو أعظم المصالح والمقاصد التي جاءت الشريعة لحفظها وتحقيقها علىٰ الإطلاق، وما يضاده من الشرك هو أعظم المفاسد علىٰ الإطلاق التي جاءت الشريعة لدرئها وإبطالها، فتنبه لهذا ولا يغرّك فقه المتخاذلين الذين يحاولون إماتة مصلحة التوحيد وتأخيرها لمصالح ثانوية مرجوحة، وكلما سمعتهم يشقشقون بميزان المصالح والمفاسد ذكّرهم بأن أعظم المصالح علىٰ الإطلاق وأصل الأصول هو التوحيد، ومن ضيّع الأصول حرم الوصول.

- للتوحيد أصل وواجبات ومكملات والتكفير إنما يكون بنقض أصل التوحيد:

في كتابي الثلاثينية الذي كتبته قبل عشرين سنة ردًا علىٰ الغلو؛ وتحذيرًا من أخطاء التكفير؛ نبّهت إلىٰ أن بعض الشباب قد يُدخلون في التوحيد أشياء ربما ليست منه؛ ثم يُكَفّرون من خالفها؛ وبعضهم لا يفعل ذلك ولكنه لا يُميّز؛ بين ما كان تركه من التوحيد؛ أو الإخلال به مكفرًا وما ليس كذلك؛ ولضبط الأمر عند الشباب ذكرت هذا في قسم التحذير من خطأ (الخلط في التكفير بين ما هو من أصل الإيمان أو نواقضه؛ وبين ما هو من الإيمان الواجب أوالمستحب)

ودعوت الشباب إلىٰ التعامل مع التوحيد علىٰ هذا؛ وتقسيمه علىٰ أقسام الإيمان؛ ليحذروا من أخطاء التكفير.

- وعليه فيمكن القول أنّ للتوحيد أصل يكفر من أخلّ به؛ وهو يشمل ما لا يصح التوحيد إلا بالإتيان به؛ كالكفر بالطاغوت والإيمان بالله؛ وما لا يصح التوحيد إلا باجتنابه كنواقض الإسلام ومنها الشرك الأكبر؛ ومظاهرة المشركين وتوليهم علىٰ المسلمين؛ والتشريع مع الله مالم يأذن به الله؛ أو قبول هذا التشريع والتواطؤ والاجتماع عليه؛ أوتحكيمه والتحاكم إليه .. ونحوه من نواقض التوحيد والإسلام.

- وللتوحيد واجبات؛ لا ينتقض التوحيد بالإخلال بها؛ ولكن ينتقص مِن كماله الواجب؛ فيأثم فاعلها أو تاركها ولا يكفر؛ ومن جنس ذلك نصرة المؤمنين وموالاتهم وأن يحب لهم ما يحب لنفسه؛ وترك مداهنة الكافرين؛ والتشبه غير المكفر بهم ونحوه من الأمور .. ولكن يُخشىٰ أن تصبح هذه الأشياء ذريعة توصل إلىٰ نقض التوحيد .. ولذلك ينبغي الزجر عنها وإنكارها ..

- وللتوحيد مكملات مستحبة تجعل صاحبها من سادات الموحدين؛ ومن أولياء الله المتقين؛ ومن أصحاب الطائفة الظاهرة المنصورة؛ من ذلك إظهار عداوة أعداء التوحيد باللسان، وإعلان تكفيرهم وإبداء البراءة منهم؛ ومجاهدتهم بالسنان لإبطال شركهم العصري أو القديم.

ومَن كَفَّر أهل التوحيد لنقص أو خلل بالقسمين الثاني والأخير فهو إما من أهل الغلو أو مخطئ في أحكام التكفير؛ أنكرنا عليه تكفيره منذ أن هدانا الله بمنه وكرمه؛ ومن راجع هوامش كتابي (ملة إبراهيم) وتعليقاتي علىٰ بعض إطلاقات الأئمة التي أورتها فيه؛ ظهر له ذلك؛ وهو من أوائل ما خطّته يدي..

وعليه فأقول: إنما اخترت لفظ (تمييع) التوحيد في خطاب بعض الناس والجماعات، ولفظ مناقضة التوحيد في خطاب غيرهم؛ لأني راعيت دخول هذا التقسيم فيه؛ لأراعي حال كل قوم وما يستحقونه، ولو استعملت لفظ المناقضة دائما لجاز للخصوم أن يتهموني بتكفير من لا يستحق التكفير؛ أما وقد استعملت لفظ التمييع فقد افترىٰ علي كل من ألزمني بتكفير كل من أخلّ بالتوحيد المطلق.

وإنما حذّرنا في مرحلة كثيرا من التمييع ولم نتوقف عند النواقض وحدها؛ لأنّ أكثر كلامنا في هذا الشأن في تلك المرحلة؛ إنما كان يُوجّه إلىٰ بعض ساحات الجهاد .. ولأنّ ساحات الجهاد يختلط فيها ويدخلها حين تبدأ بثورة عامة؛ الحابل والنابل، فقد وُجد في الفصائل التي تُصنف عند بعض الناس علىٰ أنها فصائل للمجاهدين! من يُميّع التوحيد؛ بل ووجد فيها من يناقضه!

- وأما مناقضة التوحيد فلا يختلف العقلاء من المسلمين علىٰ خبث ثمراته، وأن من ناقض التوحيد لايجوز مناصرته ولا مؤازرته ولا إعانته علىٰ الوصول للحكم، لأن ذلك يعني بكل وضوح؛ إستبدال طاغوت قديم قد ملّه الشعب، بطاغوت جديد مُلمّع يُغرر به الشعب!!

سيقول لكم المهرجون والمطبلون والمرقعون: وهل يوجد منتسب للجهاد يناقض التوحيد؟

فقولوا لهم: أوَما سمعتم عمن يدعون إلىٰ الدخول تحت مظلة الحكومات العلمانية؟

أوَما سمعتم بمن يسعون إلىٰ الحكم الديمقراطي؟

أوَما سمعتم عمن سيُحَكِّم الشعب وأغلبيته في اختيار نوع الحكم بهد إسقاط الطاغوت؟

أوَما سمعتم إلىٰ من يُزيّن الحكم العلماني التركي ويجعله مثالا يُحتذىٰ به في الثورة السورية؟

أليس في الفصائل التي ينسبها اليوم بعض الناس إلىٰ المجاهدين في الشام من يدعو إلىٰ ذلك كله أو بعضه؟

وكثير من الشرعيين لا يتحرّجون من تسمية هؤلاء بالمجاهدين ماداموا يقاتلون بشار؛ فهذا هو المعيار عند كثير من شرعيي الفصائل في الشام دون قيد

وقد وجد فعلا من المجاهدين من يتحالف مع هؤلاء ويُقدمه ويؤمّره علىٰ خيار المجاهدين، ووجد منهم من يُجادل عنهم حين ننكر باطلهم . . فلزم بيان حال هذه الأصناف، وبيان حكم الله فيهم، وبُعدهم أو قُربهم من التوحيد الذي هو أحقّ حقوق الله علىٰ العبيد.

خصوصا وقد تكررت أمثال هذه العيّنات والتجارب من قبل في أفغانستان والصومال وغيرها فهل كان أحد من الناس يتهم سياف ورباني وشيخ شريف بشيء من الشرك العصري؛ أو يشكك في ولائه وجهاده؛ إلا النزر القليل من المتبصرين؛ الذين حاربهم الناس ورموهم بالغلو والتشدد قبل تكشف أمر تلك الحثالات!

- أما تمييع التوحيد فقد كان له في ساحات الجهاد أثرًا كبيرًا في انحراف الجهاد وتضييع ثمراته؛ وغالبا ما أوصل التمييع ومآله إلىٰ نواقض التوحيد؛ فلكي لا تتكرّر تلك التجارب الخاطئة؛ فنحن ننصح للجهاد والمجاهدين؛ ونحذرهم من تمييع التوحيد، مع أننا لا نكفر به لا بالحال، ولا بما نتوقعه له من المآل؛ حتىٰ نرىٰ ذلك واقعًا، عافنا الله وعافىٰ المجاهدين منه.

ومشكلة المجادلين بالباطل الذين يدفنون رؤوسهم بالرمال؛ أنهم يتعامون عن التجارب السابقة، ولا يكترثون بتكرارها واجترارها، دون هتمام للخسائر التي تستنزف أرواح الشباب

المخلصين؛ وتجعل أشلاءهم سُلّما يرقىٰ عليه أصحاب المشاريع الخبيثة. .

- ولقد شهدنا في بعض الساحات الجهادية ولا زلنا نرىٰ؛ ما هو من مناقضة التوحيد كمظاهرة المشركين والمرتدين والعلمانيين ومناصرتهم علىٰ المسلمين . . وكتحكيم القانون الوضعي الوضيع، أو جعل الحاكمية للجماهير كما في شرعة الديمقراطية التي يتبناها بعض من ينتسب إلىٰ الجهاد زورا؛ فكُنّا نرىٰ أنّ هذه الفصائل والأحزاب أحزابا جاهلة كفرية؛ لم نتحرّج من القول بمناقضتها للتوحيد!

ومن اتهمنا بتكفير المجاهدين وشنّع علينا رميهم بنقض التوحيد وتسخيفه أو تمييعه؛ إن كان يقصد هؤلاء ويجادل عنهم، فليتعلم التوحيد، وليأخذ دورة في عراه الوثقىٰ ونواقضه . . قبل أن يتهمنا بما يقال لمثله: وتلك شكاة ظاهر عنّا عارها!

- كما شهدنا أحزابًا وجماعات تداهن الطواغيت وتتلقىٰ الدعم الذي تزعم أنه غير مشروط؛ فتركن إليهم وتنسّق مع استخباراتهم في بعض الأمور؛ وتمنع من التصريح بتكفير دولهم ورؤسائهم في معسكراتها ومعاهدها؛ ومع ذلك لم نُكفّرها بذلك وحده ولكننا حذّرنا منها ومن الجهاد معها؛ وحذّرنا من تسليطها علىٰ تضحيات المجاهدين؛ وتمكينها من ثمرات جهادهم وتضحيات شهدائهم؛ وتوقعنا مآلات سيئة لهذه الأحزاب

والجماعات؛ وقد سدّدنا الله تعالىٰ في ذلك؛ رغم خداع كثير من أولئك القادة للشباب والعلماء؛ فبعضهم كان يتسربل بالسلفية؛ ويجلب مشايخها إلىٰ مضافاته ومعسكراته، وبعضهم كان يتشدّق بأدبيات سيّد قطب وبعضهم وبعضم..

ولكن لأنّ ميزاننا كان التوحيد وعراه الوثقىٰ لم نغترّ بهم ولله الحمد؛ مع ضبطنا لمسائل التكفير؛ وعدم تكفيرنا بالمآل..

- فعدم التكفير لا ينبغي أن يشلّ التفكير والتمييز والبصيرة؛ وأعظم الفقه؛ التفرس في الأحوال والنظر في المآل؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾

- وعندما نسمع من يُسوّي بين ابن الثورة كائنا من كان ومهما كانت غايته؛ مادام يقاتل بشار؛ وبين أنصار التوحيد وطلاب الشريعة الذين يقاتلون في سبيل تحكيمها؛ بل وربما قدم (العجل) ابن الثورة علىٰ هؤلاء؛ وولاه عليهم، عندما نرىٰ ذلك ونسمعه فلا بدّ أن نُحذّر من مآل الثمرة التي يسعىٰ إليها هؤلاء؛ ونُحذّر منه ومن جماعته؛ ولا نتحرّج من وصفه بتمييع فرقان التوحيد وتغبيش عرىٰ الولاء والبراء؛ وكوننا لا نكفّره بهذا التخبّط وحده؛ لا يعني أن نزكّيه ونُغرّر بالشباب للقتال تحت رايته؛ والإستشهاد لتحقيق غايته؛ خصوصا ومجال الإختيار في الساحات الجهادية اليوم موجود ولله الحمد؛ فلماذا يُغرّر بالشباب تحت

دعاوىٰ فقه الإضطرار؛ كجواز القتال مع الأمير الفاجر؛ والتساهل في شرط دفع الصائل؟

- وعندما نرىٰ ونسمع من يمدح جيوش العلمانيين ويُجادل عن حكامهم؛ ويلمّعهم ويُحارب ويرمي بالغلو من كفّرهم؛ لا ننتظره حتىٰ يُسفر لثامه عن وجه كوجه رباني وسياف وأشباههم؛ بل نعرفهم وتتكشّف حقائقهم لنا من ساعة مدحهم لضياء الحق أو أردغان وثنائهم علىٰ طواغيت العربان حتىٰ وإن لم نكفرهم لأجل هذا المدح وحده؛ فلا يسمح لنا ديننا أن نُغرّر بالشباب تحت رايتهم؛ بل يُملي علينا الواجب الشرعي وما آلت إليه ثمرات التجارب السابقة؛ أن ننبههم ونحذرهم وأن ندعوهم كي يضنّوا بدمائهم عن مثل هذه الجماعات؛ وأن يبذلوها تحت أنظف الرايات وأوضح الغايات.

- وعندما نسمع بعض القيادات تُصرّح أنّ نوع الحكم الذي يطلبونه ويقاتلون من أجله سيقرّره الشعب؛ لا يسمح لنا ديننا بترك الشباب يقوّون مثل هذه الجماعات أويُعينون علىٰ إيصالها إلىٰ الحكم؛ حتىٰ لو لم يكفر لدعواه أن الشعب مسلم ولن يختار غير الإسلام؛ فمن يخجل من إعلان تبنّي الشريعة غاية؛ وراوغ واختار الضبابية التي تُرضي الكفار؛ مثل هذا لا يستحق ثقتنا ولا تزكيتنا، ولا يستحق أن يمنح ثقة المجاهدين ولا أن يُسلّط علىٰ ثمرة دمائهم وتضحياتهم..

خاتـمـة

أن التشديد في الذرائع التي قد توصل إلى الشرك سنّة نبوية وليست بدعة تَنطّعية

هذا واعلم رحمك الله؛ أن مَن استنكر دندنتنا حول التوحيد مع المسلمين والمجاهدين، واستهجن تشديدنا في إنكار الذرائع والتمييع الذي قد يوصل إلىٰ التنديد؛ ورأىٰ أن هذا تنطعًا، أو غلوًا؛ أو تعنّتًا؛ فهو جاهلٌ في دعوة النبي ﷺ وسيرته..

فعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ حُنَيْنٍ -وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ-، ولِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، ويَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ: فَمَرَرْنَا بِالسِّدْرَةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ, اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

فليتأمل الموحّد شدّة غضب رسول الله ﷺ لطلب الصحابة منه أن يجعل لهم شجرة ذات أنواط تشبّهًا بالمشركين؛ والصحيح أنّهم لم يطلبوا الشرك الصريح بل طلبوا المشابهة؛ وكيف يمكن

أن يطلبوا الشرك الصراح؛ وقد كان أوّل ما يسمعه الواحد منهم قبل إسلامه عن رسول الله ﷺ أن أصل دينه الذي يدعو إليه هو البراءة من عبادة غير الله واجتناب الشرك بكافة ألوانه والسعي في هدمه وإخراج الناس منه؟ فهل يعقل مع هذا أن يتجرّأوا علىٰ طلب الشرك الصراح منه بعد إسلامهم ومعرفتهم للتوحيد؟

فإنّ الكفار والمشركين أنفسهم كانوا يعلمون ويفهمون أن محمدا ﷺ لا يرضىٰ بالشرك وأن دينه لا يأذن به، وقد أخبر الله عنهم أنهم يقولون عن النبي ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾.

ولذلك فإن الصواب الذي لا محيد عنه؛ هو ما قرّره شيخ الإسلام ابن تيمية في «الاقتضاء» والشاطبي في «الاعتصام» وللنووي قريب منه، وقاله الشيخ محمد بن عبد الوهاب في «كشف الشبهات»؛ أنهم لم يطلبوا الشرك الصراح، وإنما طلبوا التشبّه بالكفار في هذه الواقعة، وبإذن من النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فأنكر النبي ﷺ مجرد مشابهتهم الكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلّقين سلاحهم، فكيف بما هو أطم من ذلك من مشابهتهم المشركين أو هو الشرك بعينه) أهـ [من اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: ص٣١٤].

وقال النووي: (المراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر) أهـ

فإذا علمت أن الصحابة لم يطلبوا الشرك الصراح في هذه الواقعة وإنما طلبوا مشابهة الكفار بإذن من النبي ﷺ ثم رأيتَ شدّة ردّه ﷺ حيث قال: (اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾

علمت أننا حين ندندن علىٰ دعوة التوحيد إنما نتشبه بالنبي ﷺ، وحين نُشدّد في إنكار الذرائع التي قد توصل إلىٰ الشرك لم نأت ببدع من القول، فهذه هي عادته صلىٰ الله وسلم وسنته..

وهذا يُظهر لك جهل من يستنكر اقتداءنا بسنة نبينا ﷺ في الدندنة علىٰ التوحيد؛ والتشديد في حسم الذرائع التي قد توصل إلىٰ الشرك والتنديد..

وأن الواجب المتحتم والسنة النبوية الصريحة تستلزم تشديد النكير علىٰ أمثال ذلك؛ كالركون للعلمانيين؛ والجدال عن الطواغيت؛ والتهوين من جريمة حكمهم بغير ما أنزل الله؛ أو تولية المناصب لمن لا يكترثون بتحكيم الشريعة؛ وعدم المبالاة بتقديم من يطالبون بالدخول تحت الحكومات الكافرة؛ فهذه كلها منكرات يجب إنكارها، ومن سماها تمييعا للتوحيد وعراه الوثقىٰ

فقد تلطّف في الوصف واستبرأ واحتاط .. ولا يضرّه تشنيع المشنّعين، ولا كذب المفترين..

والله يحكم بيننا وإليه المصير

وكتب

أبو محمد عاصم العتيبي

ربيع الأول ١٤٣٩ من هجرة المصطفىٰ

الفهرس



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الرسالة الأولى: ملة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الرسالة الثانية: التوحيد أولا ودائما

الموضوع	الصفحة